رغد أسعد طه

المدينة المحصّنة

رواية خيالية مقتبسة من الواقع

إن أكملت هذه الرواية حتى النهاية فقد تضحك كثيراً من سذاجتي ، و هذه مصيبةٌ في حد ذاتها !

إهداء إلى أهالي مدينتي المحصنة بهم ، إلى شهدائنا و أحيائنا ، أعني أحياءنا و أحياءنا .

إلى أشاوسنا الأبطال الميامين ، بارك الله في سواعدكم الوضيئة ، و إليك أنتَ يا بطلي المُنتصر ، شهيداً بإذن الله .

إلى أحرار أمتنا الذين مازلت أرجو _على استحياءٍ _ أن يخرجوا من روايتي و يخطّوها على أرض الواقع .

إلى والديّ الحبيبين و أختي و إخوتي .

إلى صديقاتي ، و إلى كل من احتضنتهم أضلعي و سكنوا حجرات قلبي .

و إلى الذي نعتني بالكاتبة الروائية الصغيرة ... هأنذا !

الفصل الأول

كان يوم الانفجار العظيم في المدينة المحصنة ، عندما اصطبغت السماء عند الغروب بلونٍ دمويٍ يعكس المشهد على الأرض ، دماء ثأرٍ شفت القلوب المقهورة و أخمدت بعضاً من نيرانها بعد عقودٍ من الاشتعال ، و دماءٌ أخرى سالت لتشعل جذوة القهر من جديد ، و تطلب الثأر و القصاص من جديد !

أرضٌ واحدةٌ ودعتها الشمس و لمّا تستوعب ما حدث فيها ، كثيرٌ من المفاجآت تنذر بليالٍ طويلةٍ ستغيب فيها هذه الشمس ، و إن سطعت في السماء ! فالليل يعني الخوف في قاموس المدينة المحصنة ، و يستمر الليل حتى تطلع شمس الأمان ، ترسل أشعتها الدافئة علّها تمسح الكوابيس المفزعة ... لكن أنّى لها أن تفعل ؟!

تجمّع سكان الحي في المدينة الخضراء حول الشاب المضرّج بدمائه ، يبدو أنه وصل إلى الحي بصعوبةٍ بعدما أصيب و قُطعت يده ! و الآن خارت قواه و فقد وعيه ، ملابسه العسكرية تكشف عن هويته ... إنه حتماً من الشبان الذين زيّنوا زهرات أعمارهم بشريطٍ أحمرَ و أهدوها لبلادهم ، أولئك الذين تخطّوا الحاجز المنيع في أنفسهم و على الأرض ، و زلزلوا الأعداء باقتحامهم أرض أجدادهم ! ... إنه من المدينة المحصنة ، و يجب عليهم إخفاؤه بسرعة !

فزع الناس لمنظره و تهامسوا :

_ إنه يرتدي لباس الأشاوس !

_ احملوه قبل أن يراه الأعداء !

***

تحت أشعة الشمس وقت الظهيرة ، طابورٌ طويلٌ من الأجساد البشرية المنهكة ، غبارٌ يملأ ملابسهم و نفوسهم ، آهاتٌ من أعماق القلوب تعج بها الوجوه ، أكفٌ صغيرةٌ تحمل دلاءً و تنتظر دورها لتملأها بالماء ، و أكفٌ مجعدةٌ و ظهورٌ حناها

الزمن في نفس الطابور ، لكنكَ لا تميز صغيرهم من كبيرهم ؛ لأن الشيب اشتعل في عقولهم جميعهم بلهيب الحرب !

وقفت (بلسم) في الطابور شاردة الذهن ، حلّقت في ذكرياتها تتذكر أخاها الغائب ، تذكرت أول أيامها في الجامعة قبل شهورٍ قليلةٍ من الحرب ، بعدما أنهت الثانوية العامة و سجلت في كلية الهندسة على خطا أخيها الكبير و الوحيد (أحمد) ، ابتسمت عندما تذكرت كيف كانت تخرج معه مزهوّةً به ، و هو يسير بجانبها بطوله الفارع و منكبيه العريضين كالحارس الأمين ، و كيف كان ينحت الصخر و هو يحاول أن يشرح لها المحاضرات بلا فائدة ، فيتذمر : " من سجّل هذه البنت في كلية الهندسة ؟!!"

لتنساب دموعها على وجنتيها ، حتى يراضيها بالحلويات و يغدق عليها بحنانه .

كانت و مازالت تحبه ..

لكنه اختفى !

و لا تعرف إن كان حياً أو .. !!

فزعت للاحتمال الآخر فأفاقت من شرودها ، نظرت إلى الطابور بضجر ، ثم شدتها الذاكرة لتتوغل في سراديبها أكثر ، إلى حيث كانت طفلةً صغيرة بجديلتين مضفّرتين و فستانٍ مزركش ، وقفت بعيداً تراقب الشبان الملثمين بملابسهم العسكرية ، و الذين اصطفوا لتهنئة الناس بالعيد ، كانت تطالعهم بإكبار من دون أن تجرؤ على الاقتراب و مصافحتهم كغيرها من الأطفال ، لكن أحدهم اقترب منها و سلّم عليها و أخذ يلاعبها ، لا تزال تذكر كيف صُعقت عندما سمعت صوته و أدركت أنهم يتكلمون و يضحكون ! كانت في قمة السعادة بسبب تلك المصافحة ، عادت إلى البيت و هي تقسم أنها لن تغسل كفها بعد اليوم !

لم تكن تعلم أنها تعيش في نفس البيت مع واحدٍ منهم ، فأخوها قائدٌ من الأشاوس !

تذكرت كيف كانت _ بعدما اكتشفت سره _ تلح عليه ليريها صورته باللباس العسكري و البندقية ، و هو كان مصرّاً على أن هذه الصورة لا تُعرض إلا عندما يُستشهد المقاتل في المعركة ، ظلت تلح حتى صرخ فيها :

_ هل تستعجلين موتي إلى هذا الحد ؟!

_ أنا فقط أريد أن أراها .

و بدأ الجدال حتى نال كلٌ منهما رميةً مسددةً من شبشب الوالدة ، لتهتف بلسم ضاحكةً :

_ هل تجدون مكاناً لأمي بينكم ؟

ليرد عليها أحمد و هو يتحسس موضع الإصابة بتألم :

_ معكِ حق ! ستكون قناصةً محترفة !

و هكذا كانت جدالاتهما تستحيل نكاتاً و ضحكاً في أغلب الأحيان ، إلا يوم سألته سؤالاً كان يؤرقها و يدمي قلبها ، قالت :

_ أخي ، عندي سؤالٌ لك .

رد بسرعة و تلقائية :

_ صدقيني أنا مفلس و لا أستطيع شراء أي شيءٍ في الوقت الراهن .

ضحكت و سألت ببراءةٍ مصطنعة:

_ و لا حتى قطعة شوكولاتة واحدة ؟!

_ طيب لا بأس .

ثم اكتسبت ملامحها طابعاً جدياً و قالت :

_ لم أكن سأطلب شيئاً ، لدي سؤالٌ وجيه .

_ هاتِ لأرى ! لم أعتد على أسئلةٍ وجيهةٍ منكِ ، هل أنتِ مريضة ؟

_ لا لا ، أريد أن أسأل ...

نفرت الدموع من عينيها و تابعت وسط دهشته :

_ لماذا تضطرون أنتم الشبان البسطاء للقتال بأجسادكم العارية و أسلحتكم البسيطة ، مع أن الممالك الشقيقة تزخر بالجيوش و العتاد ؟!

تنهد بحرقة ، و سأل :

_ هل كنتِ تفكرين في احتمالية أن أستشهد في إحدى المعارك ؟

أومأت برأسها إيجاباً ليجيب مدّعياً البهجة :

_ ممتاز ! عندها سترين الصورة التي تريدين .

زاد تدفق دموعها ، فأجلسها على سريره و جلس بجانبها و قال بصوتٍ جاد تشوبه المرارة :

_ صحيحٌ أننا نتشارك مع الممالك الشقيقة روابط متينة ، أو يفترض بها أن تكون كذلك ، إلا أن سياسة العدو جعلتنا في نظرهم بؤرة شغبٍ يجب استئصالها لتحقيق السلام العالمي ... ألم يسمّونا (المملكة السوداء)؟!

_ تقصد أن قتلنا يحقق السلام و الازدهار ؟!!

_ اسمعيني يا أختي ... قبل قدوم هذا المحتل كانت ممالكنا متحدة ، لكن الحروب العالمية قطّعت أوصالها لتُحتل كلٌ منها على حدة ، و ربما يُخيل إليكِ كما لغيرك أن الاحتلال خرج من جميع الممالك الشقيقة إلا مملكتنا ، و هذا غير صحيح ؛ فهو يسيطر حتى اليوم على ثرواتها و خيراتها و عقول كثيرٍ من أهلها عبر رؤوسه و سمومه التي مازال يدسها هناك ، أما مملكتنا فكان نصيبها مختلفاً ، لم يكن هدفهم إخضاع شعبٍ بل إبادته ! هُجّر أجدادنا و مازال المحتلون يسعون لإبادة شعبنا و إحلال شعبٍ غيره بدلاً عنه ، قيل لهم أن مملكتنا جميلة ، لكنها متزوجة من شعبها ! ... و من سيمنعهم من التخلص من زوجها و كل من حولهم يصفق لهم متشوقاً إلى أن تُزف بلادنا لهم ، كأن دماً لم يسفك و صراخاً لم يسمع !

_ تقصد أن الممالك الشقيقة تؤيدهم ؟!

ضحك أحمد و قال :

_ ملوكها ضيوف شرفٍ في حفل الزفاف الدموي !

_ ماذا عن الشعوب ؟!

_ ممالك دكتاتوريةٌ ، من يتنفس ضدهم من شعبهم يُنفى وراء الشمس ؛ لذلك يتقوقع أغلب الشباب في حياتهم الخاصة و ينغمس فيها منتظراً القائد الفاتح !

ردت بلسم باستهزاء :

_ و هل سينزل القائد من السماء ؟!

ضحك أحمد و أتبع :

_ و هكذا أسموها المملكة البيضاء ؛ لأنها العروس المرتقبة التي يظنون أنها ستُزف إليهم بعد أن يلطخوا ثوبها بدماء زوجها !! ظنوا أننا لقمةٌ سائغة ، و أخذوا يدّعون السلام و يوقعون على المشاريع التجارية مع "أشقائنا" في الممالك المجاورة ، مشاريعٌ تنفع الجميع قائمةٌ على مأساة شعبنا و حقوقه المسلوبة ، و هكذا أصبح أبناء المملكة السوداء الذين يناضلون لاستعادة أرضهم و حقوقهم أشراراً يعكّرون صفو العلاقات الودية و التحيات المتبادلة بين الذئب و فريسته المستقبلية !

ثم ربت على كتفها بحنانٍ و قال باعتزاز :

_ لكنّا كنّا و مازلنا و سنبقى غصةً شائكةً في حلقهم يختنقون بها حتى الموت .

مسحت دموعها و قالت :

_ فهمت ... أنت تشرح التاريخ أفضل بكثيرٍ من الرياضيات !

_ هذا ليس تاريخاً فقط ، بل هو الواقع الذي نعيشه اليوم ، كما أن شرحي للرياضيات ممتاز !

صمتت لبرهةٍ فظن أنها تستوعب ما قال ، لكنها ابتسمت بمكرٍ و قالت :

_ أريدها بالبندق .

_ ما هي ؟!!

ضحكت و ردت :

_ قطعة الشوكولاتة !

نظر إليها متفاجئاً ، هل كانت تفكر في هذا ؟!! قال محاولاً التملص من الأمر :

_ لكنكِ جئتِ لتسألي فحسب .

_ أنت من تطوعت بنفسك .

تنهد و أجاب :

_ سأحضر لكِ قطعتين على ألا تفكري في هذا الموضوع مرةً أخرى ..

أيقظها من شرودها نقرٌ على كتفها ، جاء دورها في الطابور ! دعكت عينيها تحاول استيعاب مكانها كأنها كانت في آلةٍ للزمن سافرت فيها إلى الماضي ، هي فتاةٌ مثخنةٌ بالماضي ، تتمسك بآخر رمقٍ تملكه من الأمل ، و تحارب اليأس الذي ما انفك يتعملق داخلها باجترار الذكريات ، كأن تذكر ما كان سيعيده إلى ما كان !

ملأت الدلاء بالماء و عادت إلى خيمة النزوح ، حيث تعيش مع والديها و أختها الصغيرة (رهف) في انتظار الفرج .

***

_ صباح الخير يا بلسم ، كيف الحال ؟

كانت هذه (لبنى) صديقة بلسم المقربة ، التي نزحت مع والدتها بينما يقبع والدها و إخوتها في الأسر ، ردت رهف عليها بامتعاض :

_ نعيش في خيمة ، كيف سيكون حالنا برأيك ؟

زجرتها بلسم :

_ رهف !!

ردت لبنى :

_ و كأني أعيش في قصرٍ يا رهف ، لسانكِ يزداد طولاً كل يوم .

ثم أتبعت :

_ آه تذكرت ! لقد سجلتُ في منحةٍ في المملكة الفسفورية .

_ و هل يوجد مملكةٌ بهذا الاسم ؟!

ضحكت لبنى و أجابت :

_ أنا نفسي عرفتها بالأمس عندما سجلت ، و لأن الإنترنت معدومٌ هنا عليّ الذهاب إلى منطقة السوق لأسجل .

_ و منذ متى تهتمين بالدراسة إلى هذا الحد ؟!

_ سأفعل أي شيءٍ لأخرج من هذه المملكة المكلومة ! المضحك أنهم يطلبون خطاب نيةٍ لتوضيح دوافعي للتقديم في المنحة ، أرغب بكتابة جملةٍ واحدة في الخطاب ... (لأنني من المملكة السوداء و أريد النجاة بحياتي)!

ضحكت بلسم و علّقت :

_ يكفي و زيادة !

_ و أنتِ ، تعالي معي لتسجلي لنفسكِ .

_ كسلي يمنعني من المشي لمسافةٍ طويلة .

_ ألستِ صديقتي المقربة ؟! ... سنذهب إلى منطقة السوق .

_ السوق ؟!

تذكرت بلسم صديق أخيها المقرب من الجامعة ، أهله يعيشون في السوق هنا وسط المدينة بينما هو _ كما تظن _ في ساحة القتال ، و شخصٌ مثله ربما يملك في بيته هاتفاً آمناً يتصل بخطوط الأشاوس السرية ، ربما يمكنها أن تجرب استخدامه ... هذه آخر وسيلةٍ ترحم عائلتها من عذاب التأرجح في المجهول .

تنهدت بلسم باستسلام و ردت :

_ طيب ... سأستأذن من والدي و آتي .

الفصل الثاني

كان (حسن) يقطع الغرفة ذهاباً و إياباً منفعلاً ، يزأر في سمع أخيه الأكبر (سليم) كأنه هو المسؤول عن كل ما يحدث ، بينما يستمع سليم إليه منتظراً بفارغ الصبر أن تنتهي موجته الانفعالية و يخفت عنفوانه .

_ آخ يا رجل ! نحن نبث كل الفظائع ، جرائم لم تكن تخطر على قلب بشر ، كلها على مرأى و مسمع العالم أجمع ... لكن الاستجابات خجولةٌ و ضئيلة .

_ يبدو أن الناس قد اعتادوا عليها ، أنتَ مازلتَ في سنتكَ الثالثة في كلية الإعلام ، لا تتوقع الكثير من المشاهدات .

_ و تظن الأمر يتعلق بالشهرة ؟!! أنا أتحدث عن آلاف الأبرياء الذين يُقتلون هناك .

_ إن كانت المملكة لم تحرك ساكناً فماذا بيدنا ؟

_ لكننا في المملكة الحمراء ، ليس بيننا و بينهم سوى حاجز ، لمَ لا يمكننا المساعدة ؟!

_ احترس لما تقوله ، لو سمعك غيري لكنتَ في السجن الآن !

_ كم أكره تكميم الأفواه ! أنا صحفي من واجبي نشر الحقيقة .

_ بالضبط ، الحقيقة التي تفرضها عليك المملكة ! ... ذكرني كيف سُميت المملكة البيضاء بهذا الاسم و هي تحمل كل هذه الأحقاد و الشرور السوداء ؟!

_ آخ أنا ذاهب !

خرج و صفق الباب بقوة ، بينما سليم ينادي عليه :

_ لا ترتكب حماقةً يا حسن ، تصرف بعقلانية .

أرخى سليم رأسه على كرسي المكتب العملاق و أغمض عينيه محاولاً أن يخفف صداعه ، لكنه سمع فتْح الباب فتفاجأ بحسن ينظر إليه بجمودٍ و يقول برتابةٍ ساخراً :

_ و هل ترى أي عقلانيةٍ في هذا العالم ؟!

انتقلت عدوى الغضب و السخرية إلى سليم الذي فقد أعصابه و هدر في وجه أخيه :

_ المملكة السوداء فيها عدة مدنٍ متناثرة ، و هذه الحرب متركزةٌ على واحدةٍ منها فقط ، إن كانت الاستجابات في باقي المدن ضعيفة ، فماذا ستفعل أنت ؟! ... هم أوْلى بمملكتهم فليدافعوا عنها ضد عدوهم ! ... هل ستنفعهم أنت بشيءٍ إن زُججت في السجن إلى أجلٍ غير مسمى ؟!!

_ عدوهم ؟! ... تقول عدوهم !! ... إنه يصرّح بكل وقاحةٍ بأنه يستهدف جميع الممالك الشقيقة ، و مملكتنا منهم لو تذكر ! لقد قتلوا بالفعل جندياً منّا و لم يحرك الملك ساكناً ضدهم !! و تعرف جيداً أنه لو سقطت المدينة المحصنة فسيصلون إلينا بجيوشهم بعد أن كانوا " أصدقاءً و سيّاح " ، و ربما لن أنفع بشيءٍ إن زُججت في السجن ، لكني سأموت مرتاحاً على الأقل ، حتى لو أضحيت جثةً عفنةً خلف القضبان ! ... يا أخي لعنة الله على تخاذلكم و صمتكم !!

صفق حسن الباب بقوةٍ أكبر دون أن ينتظر ليسمع جواب أخيه على كلماته المحمومة ، نظر سليم ساهماً نحو الباب المغلق و تمتم :

_ ربما تكون محقاً ! لكن الحق ثمنه باهضٌ جداً في هذه الدنيا .

***

كانت بلسم تسير مع لبنى إلى السوق ، حيث تأمل أن تجد منزل صديق أخيها ، بينما تنوي لبنى أن تكمل بحثها عن المنح الدراسية ، ليست لبنى صاحبة همةٍ عالية ، لكن كثيراً غيرها من الشباب الذين توقفت مسيرتهم التعليمية بسبب الحرب يسعون بكل قوةٍ لإكمالها ، حتى أن بعضهم صار يدرس عن بعدٍ عبر انترنتٍ واهٍ شحيح الوجود ، و قد يعجب المرء عندما يرى أنواراً من العزائم تطل من تحت الركام ، و كم يغتاظ العدو الذي قتّل آلاف الخريجين و العلماء من حرص هؤلاء على العلم ، و تمسكهم بأحلامٍ ظنَّ أنه فتّتها كما فتّت جثث الكثيرين منهم ، إذ كيف يحلم المرء أحلاماً حلوةً و هو يعيش في كابوس ؟! و كيف يتطلع إلى مستقبلٍ و الموت يتربص به من كل مكانٍ و يتطلع إليه ؟! ... عليه أن يقتلهم بسرعة ! فهؤلاء احترفوا البدء من جديد ، و لن يوقفهم إلا توقف أنفاسهم ... جميعهم !

قطعت بلسم الصمت بقولها :

_ أتساءل يا لبنى ، لماذا سُميت المدينة المحصنة بهذا الاسم ؟! ... عندما كنتُ صغيرةً كنت أظن أن ذلك يعني أن أهلها محصنون ، لكنهم بالطبع ليسوا كذلك .

أجابت لبنى بنبرةٍ شامتة :

_ ربما لأنها عصيةٌ على الأعداء .

_ هل تقصدين أنه يقتحم باقي المدن كثيراً ، بينما لم يقتحم المدينة المحصنة إلا مراتٍ معدودة بعدما انسحب منها ؟

أطرقت بلسم تفكر ، بينما زمّت لبنى شفتيها بصمت ، حتى أتبعت بلسم :

_ أظن أن السبب هو أن أهل المدينة المحصنة يحصّنونها بأجسادهم !

_ لكن أهالي المدن الأخرى لا يألون جهداً في الدفاع عن مدنهم كذلك .

_ ربما لأن باقي المدن قبلت بالاتفاقيات الخدّاعة و صارت قوات الملك تعين الاحتلال على المقاتلين _ باسم السلام الواهي و الوعود الكاذبة التي نلتزم بها وحدنا و يتنكر لها عدونا _ ... بينما لم تقبل المدينة المحصنة إلا بلغة السلاح .

ردت لبنى بغيظ :

_ ربما يتعاملون هناك مع الأمور بحكمةٍ و عقلانيةٍ دون أن يسمحوا لأنفسهم _ بكل صفاقةٍ و جرأة _ بالتضحية بجميع أرواح شعبهم ، و لا يغمضون أعينهم عن الواقع الجاثم على صدورنا بينما ألسنتهم تلهج بالشعارات الغبية !

_ ماذا تقولين ؟! هل تظنين بأن الاحتلال سيهدأ له بال قبل أن يقضي على آخر واحدٍ منا ؟!

_ لمَ لا نجرب أن نضع أسلحتنا و نتفاهم ؟! ربما لأننا مستنفرون دائماً و متحفزون للقتال يتحفزون بدورهم للدفاع ضدنا و قتالنا .

_ حتى و إن وضعنا أسلحتنا و أصبحنا مسالمين للغاية فإن في داخلهم شعوراً قوياً بأنهم مجرمون يجعلهم مرتاعين طول الوقت من انتقامنا و متحفزين للقتل ... هم خائفون من أنهم إن لم يقتلونا فسنقتلهم !

_ لكن ربما تجدي الاتفاقيات في حل قضيتنا .

_ للأسف هم الطرف الأقوى ، لن يوقعوا على أي اتفاقيةٍ ليست في مصلحتهم ، هذا الاحتلال يخدعنا و يخدع العالم حيث نوقع نحن كما يشاء و البنادق على جباهنا ،

يعطي القتل و السرقة طابعاً رسمياً ليس إلا ، فحينما تسلم عليه بكلتي يديك ، فإنه يسلم بيدٍ و يقتل أخاك باليد الأخرى ، و إن أفلتَّ يديك من يده لتدافع عن أخيك ، فإنه سيقول للعالم : انظروا ! ها أنا أمد يدي للسلام و هو الذي يرفض .

ثم تنهدت و أتبعت :

_ صحيحٌ أننا عطشى للأمان و الاستقلال ، لكن ذلك السلام و تلك الاتفاقيات سرابٌ نمنّي أنفسنا به ، حتى إذا جئناه وجدناه رمالاً متحركةً تشدنا للضياع أكثر ! و احزري ماذا ؟ سيرانا العالم و يطمئن لأننا نسير إلى عين الأمان و لن يرانا أحدٌ و نحن نغوص و نموت في الرمال .

هاجت لبنى و قالت بانفعال :

_ إذن اروي عطشكِ بالدماء يا بلسم !!

و عندما لفظت لبنى تلك الكلمات سمعتا صوتاً عظيماً من السماء ، سحبت لبنى صديقتها لتختبئا ، و عندما مر الخطر زفرت لبنى بارتياح و قالت باستغراب :

_ لا أصدق أنهم يستخدمون هذه الوحوش ضدنا ، و مع ذلك لم يتمكنوا بعد من إبادتنا ، إننا كثيرون حقاً !

ثم ضحكت و سألت متفكهةً :

_ كم معدل خصوبة المرأة لدينا ؟!

ضحكت بلسم بدورها و أجابت :

_ ألمَ تسمعي بالحرب الديموغرافية ؟! ... لكني أظن أن الأهم من إنجاب الأبناء هو تربية الأبناء على العزة و الحرية ، مثلاً أمي أنجبت رجلاً واحداً ، لكنه بطلٌ بعشرة رجال !

قلّبت لبنى عينيها في السماء باستهانة ، هي لا تحب التطرق إلى المواضيع التي تختلف فيها مع صديقتها ، لكنها لم تستطع أن تخفي تهكمها قائلةً :

_ أنتِ ساذجة ! ... الناس يسعون بكل الطرق للنجاة بأبنائهم من هذه الحرب .

_ لكن الغربة عذاب ! سيصبحون عالةً على غيرهم ، كما أنه لو هرب كل الناس سيظل الأشاوس هنا !

_ أنتِ متشبعةٌ بخطابات الأشاوس !

كانت بلسم على وشك الرد ، لكن لبنى باغتتها بالسؤال :

_ صحيح ... على من ستتصلين ؟

_ شابٌ اسمه عمر ، أقرب رفاق أخي إليه ، أرجو أن أنجح هذه المرة .

ردت لبنى بثقة :

_ ستنجحين .

_ كيف عرفتِ ؟

ضحكت و ردت :

_ لأني معكِ !

ابتسمت بلسم محاولةً أن تتجاهل ما حزّ في نفسها بسبب المحادثة السابقة .

_ لا حرمني الله منكِ .

***

تسلل حسن على أطراف أصابعه منقّلاً بصره بحذرٍ في البيت هنا و هناك ، صعد الدرج بسرعةٍ ، ثم تنفس الصعداء عندما أغلق باب غرفته على نفسه ؛ لأنه نجا من جرعة توبيخٍ داومت أمه على إعطائه إياها كل يوم ، التقط هاتفه و اتصل بصديقه (أسامة) من المملكة الصفراء :

_ مرحباً يا صديقي ، كيف الحال ؟

_ أسامة ! ... كيف الأوضاع في مملكتكم ؟

_ المياه راكدة ... نفس الأوضاع عندكم .

_ هذه حممٌ راكدة علينا تحريكها ! فالمملكة الحمراء و المملكة الصفراء تحدّان المملكة السوداء ، إن لم نتحرك نحن فمن سيفعل ؟!

_ نحن نقوم بما علينا يا صاحبي ، و هم يقومون بما عليهم .

رد حسن متهكماً :

_ هل تظن أننا حقاً نقوم بما علينا ؟

_ على مهلك يا حسن ، أنا جاهزٌ لأي اقتراحات .

_ سأسألك سؤالاً واحداً فأجب عليه إن استطعت .

تحفز أسامة للتحدي و رد بثقة :

_ أنا جاهز ، اسأل ما شئت !

_ لماذا لا يتحرك الملوك ؟

استحالت ثقة أسامة قلقاً فأجاب بتوتر و غيظ :

_ أنتَ تعرف الإجابة ، أظن أن هذه المكالمة ستدخلني السجن .

_ أرأيت ؟! أنتَ تخاف من مجرد الكلام ، أنتَ لست جاهزاً أبداً .

رد أسامة بامتعاض و اقتضاب :

_ حسناً ... الملوك مستفيدون من العلاقات مع المملكة البيضاء .

استطرد حسن :

_ و غير هذا ... أظن أن وجودهم في الحكم مرهونٌ بتعاونهم و دفاعهم عنها ، فالممالك العظمى تريدنا أن نبقى رجعيين و تابعين لهم ، و لن يختاروا لحكمنا إلا أكثرنا رجعيةً و تبعية .

ضحك أسامة و قال :

_ ألو ؟ أنا لم أسمع شيئاً ! ... ماذا تريد الآن يا حسن ؟ أنا أرى ألا تستخف بجهودنا في نقل الأخبار و فضح العدو ، فالمظاهرات التي عمت كل الممالك ، و خاصةً تلك الممالك القوية التي تدعم الاحتلال ، حطمت عقوداً من الكذب و الخداع جاهد فيها الاحتلال لتصدير صورةٍ حسنةٍ عنه ، و الآن تحققت أكبر مخاوفه ! حيث صارت الشعوب تضغط على الممالك في مخاصمة المملكة البيضاء و وقف دعم همجيتها .

_ هذا ما يقهرني ! ... أن المظاهرات عمّت الممالك البعيدة عنا ، و نحن لا نتحرك أو نتوقف عند أول قمعٍ ، و نخاف من مجرد الكلام ! ... أنا لا أفهم ، لماذا نعتبر أنفسنا دائماً على الهامش و نتصرف كالأتباع مغسولي الدماغ ؟ لماذا نخجل من أن نزاحم باقي الشعوب في التأثير على الأحداث ؟ لماذا نظن أنهم أقدر منا و أقوى و أننا ضِعافٌ نعشق التقليد ؟ هل يملكون عقلاً إضافياً أم أن لهم أكثر من لسان ؟!

_ و هل تملك مصباحاً سحرياً لتغيير وضعنا ؟ ... ها نحن نرسل المساعدات .

_ و هل المساعدات تنقذ الأرواح ؟!

_ أوجعتَ دماغي ... أنا مجرد صحفي و لستُ بطلاً .

_ حسناً يا صحفي ... هل يمكنك أن تنظم مظاهرةً بالتزامن مع مملكتنا في نفس التوقيت ؟

_ ....

رمى حسن هاتفه على سريره بغضب و صرخ :

_ لقد أغلق المكالمة ... الجبان !!

***

جلست لبنى على الرصيف في السوق ، كانت جماعة الشباب الذين يحملون هواتفهم ينقرون عليها تدل على مكان وجود الانترنت ، اشترت بطاقةً و سجلت الدخول إلى إحدى الشبكات ، بينما تمشت بلسم لتبحث عن بيت (عمر) صديق أخيها ، و لم تكن المهمة سهلةً لأن الناس يخافون من السؤال عن البيوت في الحرب ، فمن يسأل يُتهم بأنه عميلٌ للعدو ، و من يُجبْ يخشَ أن يكون قد أمدّ عميلاً بمعلوماتٍ للعدو ! مشت طويلاً تتأمل البيوت حتى وقعت عيناها على صورةٍ مؤطرةٍ لشابٍ يرتدي الملابس العسكرية و يحمل سلاحه ... إنها هي ! تلك الصورة التي تُعرض عندما يستشهد المقاتل في المعركة ، لا شك أن أهل البيت يفتخرون بهذا البطل ؛ لذلك يعلقون صورته على الواجهة هكذا ، لاحت في مخيلتها صورة أخيها معلّقةً أمام بيتهم _ أو ما تبقى من ركامه _ فضاق صدرها ، اقتربت من الصورة أكثر و قرأت ما كُتب عليها :

" الشهيد : جلال عمر ال... (أبو عمر) "

لم تصدق بلسم عينيها ، ها قد وجدت ضالتها ! تضرّم القلق في صدرها ، اقتربت بخطواتٍ وجلةٍ من باب البيت و طرقته .

مرت دقائقٍ ثقالٍ كانت تصارع فيها الهرب من هذا الموقف الصعب الذي رمت نفسها فيه ، فُتح الباب أخيراً !

_ سهّل الله طريقكِ يا فتاة ، ربكِ هو الذي يسترنا .

أطلت امرأةٌ خمسينيةٌ مكفهرة الملامح و طالعت بلسم بكره ، فغرت بلسم فاها أمام كلمات المرأة القاسية ، وصلها صوتٌ آخر من الداخل :

_ انتظري يا أمي ، الفتاة لم تتكلم حتى .

ردت أم عمر متجاهلةً بلسم الواقفة عند الباب :

_ ماذا ستقول ؟! ستعيد توسلاتٍ و أدعيةً حفظتها غيباً ... أنا أكره المتسولين !

حز ذلك في نفس بلسم ، هل هذا ما آل إليه الحال ؟! ... أن تظنها متسولة !

استعادت رباطة جأشها أخيراً و قالت بسرعة :

_ أنا أكون أخت أحمد ال... ، صديق ابنكم عمر المقرب .

مرّت لحظاتٌ شعرت فيها بلسم بأن المرأة الواقفة أمامها ترشقها بسهامٍ من الحقد لم تفهم لها سبباً ، عادت أم عمر إلى الداخل دون أن تنبس ببنت شفة ، تاركةً ابنتها (سلوى) تستقبل الضيفة غير المرغوبة :

_ أهلاً و سهلاً يا حبيبتي ، تفضلي .

طرق سمع بلسم صوت أم عمر تقول بجفاء من كرسيها الذي جلست عليه :

_ لا أهلاً و لا سهلاً ، لولا أخوها لكنّا في الخارج الآن عند أخوالكِ ، هو الذي جرّ عمر للانضمام للأشاوس .

تثبتت بلسم من ظنونها بسبب تلك الكلمات ، لكنها عبست و توترت مما سمعته ، إلا أن ابتسامة سلوى الحانية خففت عنها ، جلست مترقبةً أن تهدأ الأوضاع بين الأم و ابنتها :

_ لم يجرّه أحد ، هو كان ينوي أخذ الثأر لوالدي منذ استشهاده .

_ و ما حاجتنا بهذا الثأر ؟! يريدني أن أخسر واحداً آخر ؟! ... ألا يكفي والدكِ الذي تركني وحدي مع ستة أطفال ؟! و الآن يمنعني ابنه الشجاع من الانتقال للعيش مع إخوتي علّهم يساعدوني في تربيتكم .

_ يا أمي ألم تملّي من تكرار نفس الكلام ؟! كبرنا و تربينا و أنتِ تعيدين نفس الجمل ! كما أن عمر لم يمنعنا من السفر ، لكنكِ أنتِ التي عاندته و أقسمتِ ألا تسافري دونه .

دمعت عينا الأم و قالت :

_ لا أريد أن أخسر واحداً آخر ... الحرب لا ترحم ! آهٍ كم أخشى أن يصيب إخوته مكروهٌ بسبب أفعاله !

_ يا أمي إن لكل أجلٍ كتاب ، و لا تقلقي لأن إخوته يتشرفون بالشهادة مثل والدهم .

نظرت الأم إلى ابنتها شزراً و قالت بامتعاض :

_ تكلمي عن نفسك ، أنتِ و أخوكِ نفس التفكير و الطباع ... ماذا عن الباقين ؟! مازالوا صغاراً على الموت .

عندها ظهر فتيان يتشاجران على لعبةٍ على شكل بندقية ، صاح أحدهما :

_ أعطني إياها !

_ لا إنها لي ... أنا الذي سيصبح مثل عمر .

_ بل أنا من سيصبح مثله .

زجرتهما والدتهما ، و علّقت بقلة حيلة :

_ هذا ما ينقصني .

كتمت سلوى ضحكتها عندما التقت نظراتها بنظرات والدتها المتوعدة ، هزت رأسها باستسلام ... لا فائدة ! مهما جادلتها لن تقتنع ، خوفها من الفقد يعمي بصيرتها و يسوّد تفكيرها ، تذكرت سلوى وجود بلسم المسكينة التي لا دخل لها بهذه الجدالات المزعجة ، نظرت إليها بحنانٍ و سألتها :

_ كيف عائلتكِ ؟

_ الحمد لله ، نزحنا من الشمال إلى هنا بعد أن قُصف بيتنا .

صرخت الأم باندفاع و هي تشير إلى بلسم :

_ أرأيتِ ؟! ... هذه عاقبة الذين يشتركون مع الأشاوس .

ردت سلوى بنفاذ صبر :

_ يا أمي أنتِ التي ستفتحين العيون علينا بقلة حذرك ! أرجوكِ أن تخفضي صوتكِ و إلا سمعكِ الجيران .

هدأت الأم و أطرقت رأسها تغالب الدموع ، بينما تكلمت بلسم هامسةً بعد أن ضاقت من وجودها في هذا البيت :

_ الحقيقة أني جئتُ أسأل إن كنتم تملكون هاتفاً سلكياً .

توترت سلوى و أجابت مدعيةً عدم الفهم مشيرةً إلى هاتفٍ أرضيٍ موضوعٍ على الرف :

_ مثل هذا ؟

نظرت إليها بلسم بإسهابٍ و أجابت بكل ما جمعت من قوة :

_ أقصد ذلك الذي يستخدمه الأشاوس .

قامت سلوى و أشارت إلى بلسم لتتبعها ، لحقتهم الأم التي قالت بإصرار :

_ إن كان هناك أحدٌ سيكلم عمر فسيكون أنا !

الفصل الثالث

_ إنه لا يستمع إليّ البتة ، غرفته مزبلة ، يهمل دراسته ، منذ أن بدأت الحرب في المدينة المحصنة بدأت في رأسه ، لقد جُن جنونه يا أبا سليم ، سيرسب إن ظل على هذا الحال .

_ اهدئي يا أم سليم ، عليكِ أن تفخري بأن ابنكِ حسن يحمل همّ الأمة .

_ كيف يحمل هم الأمة و هو على وشك الرسوب ؟! ... لن يتخرج من كلية الصحافة على هذا المنوال .

_ بل سيصبح أفضل صحفيٍ في البلاد ! فقلمه لا يُباع و لا يُشترى و ليس قابلاً للتفاوض من الأساس .

_ هل تشجعه على الرسوب ؟ هذا الكلام المنمّق لا يدخل دماغي .

_ لا تقلقي سأتحدث معه .

كان أبو سليم أباً فطناً يفهم أبناءه قبل أن يفصحوا له بما يعتمل في صدورهم ، و يلمّح لهم بالحلول ليقوموا بها بإرادتهم _ و توجيهه _ ، طرق الباب على حسن الذي كان يسجل رسالةً صوتيةً لأسامة :

_ إن لم تكن جباناً فاسمع ! الموعد هو الثالث من الشهر القادم ، الساعة العاشرة صباحاً ، سنرفع صوراً و شعاراتٍ و أسماء أحداث .

_ طق طق طق .

_ تفضل .

فتح أبو سليم الباب بهدوء ، و قال :

_ أرجو ألا أكون قد قاطعتُ عملك يا بني .

نظر حسن إلى أغراضه المبعثرة في الغرفة و قال بخجل :

_ تفضل يا والدي ، فيمَ أخدمك ؟

_ كنتُ أتساءل ... عن أي موعدٍ تتحدث ؟!

_ ...

_ لا تقلق ، لن أقف في طريقك ، لكني أحب إسداء النصائح كما تعلم .

_ طيب ، أنا أخطط لمظاهرةٍ في وسط المملكة ، و أرجو أن تحدث في المملكة الصفراء كذلك .

_ إذن لك أصدقاءٌ هناك ؟

_ ن...نعم ، لكني لا أضمن تعاونهم ... إنهم خائفون .

_ و أنت ! ... ألستَ خائفاً ؟

_ ...

_ هيا يا حسن .

أغمض حسن عينيه و قال بصوتٍ منخفض :

_ بلى أنا خائف .

_ فهمت .

فتح حسن عينيه و قال بعنفوان :

_ لكنني خائفٌ من عالمٍ صامتٍ أكثر من خوفي من عواقب الكلام ! ... أتعرف ماذا يعني هذا الصمت ؟! يعني أن كل الظلم سيمر بسهولةٍ في هذا العالم ، و لن يخاف الظالم من أحد ... تخيل لو أنك كنتَ مظلوماً ، و سكت العالم كله عن حقك ، بل إن الكثيرين أدانوك أنتَ و برّؤوا الظالم ... هذا العالم مخيفٌ يا والدي ، مخيف !!

كان صوته يخفت و يتهدج بالبكاء ، تخلى عن رداء الكبرياء و أعفى أعصابه من ادعاء البرود ، ربّت أبو سليم على كتفه و قال بصوتٍ دافئ :

_ المظاهرات السلمية حقٌ لكل الشعوب ، امضِ في طريقك ، لكن كن حذراً ... اعمل في الظل و دع إنجازك يخرج للنور ، و سأكون هنا إن احتجت أي شيء .

أومأ حسن رأسه بعينين محمرتين ، كان يشعر بالراحة التي يورثها البكاء للإنسان بعد أن تغسل الدموع قلبه و تمسح على حزنه ... كيف بكى بحرقةٍ هكذا ؟! و من أين جاءت كل هذه الدموع ؟! ... ربما فاضت بعد أن كانت تقطر منذ بداية الحرب في وعاء القلب ... القلب الذي يبكي دماً .

ضحك حسن عندما رأى والده يلمّح له بضرورة تنظيف غرفته بقوله و هو يشتم قميصه :

_ ما هذه الرائحة ؟! ... عليّ الاستحمام .

_ لا يا والدي هذه رائحة الغرفة ، سأنظفها حالاً .

قام أبو سليم و فتح الباب مشيراً إلى أم سليم التي كانت تسند خدها بكفها مهمومةً ، رق حسن لحالها و قلقها عليه فقال :

_ حاضر ... أخبرها أني سأعتني بدراستي .

ثم تمتم :

_ على الأقل لن أرسب .

***

عندما ضيّق الاحتلال الخِناق على ابن المدينة المحصنة فحاصره براً و بحراً و جواً ، وجد المسكين نفسه محتاجاً إلى إخراج حلٍ من تحت الأرض ، و لأنه عنيدٌ لا يقبل الاستسلام ظل يحفر في الأرض منقباً عن الحلول ، حتى بنى شبكةً من الأنفاق مكنته من الخروج للعدو الذي لم يحسب لها حساباً و ضربه من حيث لا يحتسب .

كان عمر مع رفاقه في أحد الأنفاق عندما رن الهاتف ، سلّم (مهند) الهاتف لعمر .

_ عمر هذا اتصالٌ لك .

ثم ضحك و أتبع :

_ يا ابن المحظوظة ! ... تكون موجوداً عندما يأتي الاتصال لك !

سحب عمر الهاتف من زميله و قال بقلق :

_ ألو ؟

كادت أمه أن تسقط من الفرحة التي ضجت بها عند سماعها صوت ابنها ، أمسكت سلوى الهاتف عنها :

_ مرحباً يا عمر .

_ سلوى ؟ ... ألم نتفق على ألا تستخدموا الهاتف إلا للضرورة القصوى ؟

سحبت أم عمر الهاتف بلهفة و قالت بصوتٍ متهدجٍ بالبكاء :

_ عد يا حبيبي و سافر بنا ، هيا يا عمر أرضِ والدتك ، يكفيني ما كابدتُ من شوقي إليك ، أتحرمني منك يا بني ؟! أتحرم إخوتك من الحياة الآمنة في الخارج ؟!

سكت عمر و لم يجد ما يرد به عليها ، سحبت سلوى الهاتف من والدتها التي أجهشت بالبكاء و قالت بسرعة :

_ عمر ! ... هذه أخت صديقك أحمد تسأل إن كنتَ تعرف أحواله .

_ و هل تأكدتِ أنها أخته ؟

نظرت سلوى إلى بلسم بقلق ، لم يخطر ذلك على بالها ، لكنها ضحكت و هي تتأمل ملامحها الجميلة قائلةً بثقة :

_ إنها تشبهه كثيراً يا أخي ، أتعرف أخباره ؟

_ اجتاز الحدود يوم الانفجار ، لكنه اختفى من يومها و لا نعرف أخباره .

عبست سلوى ففزعت بلسم التي كانت تدقق في كلام سلوى لتفهم ، حيث لم يصلها صوت عمر ، كتمت صرختها بصعوبة عندما رأت تلك التكشيرة ، أتبع عمر :

_ لكني مازلت أتقصى أخباره ، أخبريها أن ترجع بعد أسبوع ، فهناك عددٌ من الشباب الذين تمكنوا من العودة من الداخل المحتل سالمين لم أسألهم عنه بعد ، و ربما يحمل أحدهم أخباره .

ابتسمت سلوى و ربتت على كتف بلسم ، ردت على أخيها منهيةً الاتصال :

_ حسناً يا أخي ، في أمان الله .

سألت بلسم باضطراب :

_ ماذا قال ؟

_ عودي بعد أسبوعٍ فربما يعرف أخباره ، و لا تقلقي فهو أكثر من أخٍ بالنسبة لعمر ، و لن يرتاح مثلكِ قبل أن يعرف مكانه .

زفرت بلسم بارتياحٍ و سمحت لدموعها الحارقة أن تسيل قبل أن تلهب صدرها ، دمعت عينا سلوى لمرآها بينما كانت أم عمر تواصل نوبة نحيبها ... قد يظن الناس

أن الرجال يموتون في الحروب أكثر من شقائقهم من النساء ؛ لأنهم ببساطةٍ يتناسون أن تلك الأنثى المحبة قد أودعت قلبها بين ضلوع حبيبها ، فلما استقرت رصاصة العدو في صدره ، شيّعنا معه أماً و زوجةً و ابنةً و أخوات ، و أضحت الأنثى غمامةً لصبِّ الدموع و عصف الأحزان ... و مع ذلك ! فإنك تعجب من غمامةٍ تنذر هطولها لتربي و تسقي المزيد من الأبطال و تغمر أفئدتهم بروح الفداء ! ... و في سياق المدينة المحصنة ، لن تستمر الحياة إلا بغيث ذلك الغمام !

***

انتهت لبنى أخيراً من تقديمها لإحدى المنح ، حتى أنها أرسلت ملفاتها لبلسم لتساعدها في البحث ، و ذلك بعد أن عادت بلسم من الزيارة الثقيلة ، و جلست طويلاً تنتظر بلا عمل ، قالت بلسم متأففة في طريق العودة :

_ لا أعرف كيف صبرتِ على التقديم ، كل خطوةٍ في التقديم تستغرق وقتاً طويلاً لكي تحمّل مع هذا الانترنت العقيم !

_ عليكِ أن تعتادي على هذا الانترنت ، فموعدكِ معه الأسبوع القادم .

_ يا لئيمة !

_ نستفيد من وجودك .

_ إن سمعتُ أخباراً حلوة فسأجلس لأسجل لكِ حتى المغرب !

ردت لبنى بتعاطف :

_ أرجو ذلك .

لمعت عينا بلسم و قالت بتمنٍ :

_ أتخيل أنه مختبئٌ في مكانٍ ما أو ربما هو أسير .

_ إن كان الاحتمالان إما قتلاً أو أسراً ، فأدعو الله أن يكون قتيلاً .

ضاقت بلسم و ردت :

_ ما هذه الدعوة ؟! ... على الأقل سيكون على قيد الحياة في الأسر !

هزت لبنى رأسها و أجابت :

_ لو كان ميتاً فستكونين مرتاحةً إلى أنه يرقد بسلامٍ في قبره تحت الأرض ، أما في الأسر ... فأنا لا أعرف أي ألوان العذاب التي سيتجرعها هناك في قبرٍ فوق الأرض !

أدركت بلسم أنها قلقةٌ على والدها و إخوتها فرق قلبها ، ربتت على كتفها و قالت بحنان :

_ سيعودون قريباً إن شاء الله .

مسحت لبنى دمعةً نافرة ، و قالت بأسى :

_ لا أعرف متى ، و لا أعرف كيف سيعودون ، هل سأعرفهم و هل سيعرفونني ؟ ... كنتُ أنا و أمي هناك في الأسر معهم قبل أن يفرجوا عنا دونهم ، رأينا الإذلال و الضرب و الشتم و التحرش و تمنينا الموت ، السجن كسر كثيراً من الأشياء فينا ، و أخاف أن يرجعوا مهشّمين ، من الداخل أكثر من الخارج .

ثم نظرت لبلسم بمكرٍ و قالت بتشفٍ :

_ لكن ، ألستِ أنتِ من تظن أنه يجب أن نضحي بالدماء ؟! ... مالي أراكِ تبخلين على الأرض بدماء أخيكِ ؟

كظمت بلسم غيظها و قالت بهدوء :

_ لا أبخل على الأرض بدمائه ، و لا أبخل بالجنة عليه ، لكن الفراق قاسٍ ... قاسٍ جداً .

_ بالضبط ! ... و لن أسامحهم أبداً .

_ و أنا مثلكِ لن أسامح .

ضحكت لبنى بعصبية و ردت :

_ أنا أقصد الأشاوس يا غبية ، الأغبياء الذين دمّروا حياتنا و جرّوا إلينا المصائب جراً !!

لم تستوعب بلسم ما سمعته ، أمسكت يد لبنى و قالت بقوة :

_ افتحي عينيكِ !! العدو هو الذي دمّر حياتنا ! ... الأشاوس يدافعون عنّا .

دفعت لبنى يدها بقوة و ردت :

_ إنهم يستخدموننا كدروعٍ بشرية !!

_ إنهم يضحّون بأنفسهم لأجلنا !!

علا صوت لبنى أكثر :

_ لم يطلب أحدٌ تضحياتهم ... كانت حياتنا جيدة ... ينتفضون لتحسينها أليس كذلك ؟! ... ها قد صارت في الحضيض !

_ هل تريدين أن يجلسوا مكتوفي الأيدي منتظرين إبادتنا ؟!

_ اصمتي ! ... ليسوا أهلاً لهذه الحرب ، لماذا جرّونا إليها ؟

_ الحرب آتيةٌ لا محالة !

_ هل طلبوا رأي الشعب قبل فعلتهم ؟! ... أنا و غيري الكثير لا نوافق على هذا الغباء ، ربما كان حكم العدو لنا أفضل و أكثر حكمةً من حكمهم !

سألت بلسم بتلعثم و هي تركز عينيها في عيني لبنى :

_ هل تعنين ؟ ... هل تعنين أنكِ تعملين معهم ؟!

عبست لبنى و أشاحت بوجهها :

_ وعدوني بأن يفرجوا عن إخوتي و يضمنوا لنا حياةً هانئةً خارج المملكة إن بلّغت عن المقاتلين .

_ و هل صدقتهم ؟

_ سيوفون بعهدهم ؛ لكي يقلّدني الناس .

نظرت بلسم إليها شزراً ، و ردت بحنق :

_ يا لكِ من قدوةٍ حسنة !

_ الغريق يتمسك بقشة ... لقد وعدني الضابط أثناء التحقيق .

_ أنتِ تتمسكين بحبلٍ يسحبكِ إلى القاع ! ... هذه حربٌ نفسية ، لا تسمحي لكلامه المعسول بأن يخدعك ، أنتَ ترين كمية السادية و الحقد التي تنفر من عروقهم !

ثم تذكرت شيئاً فسألت بسرعة و قلق :

_ هل بلّغتِ عن أخي ... ستُقصف خيمتنا إن فعلتِ لأنهم ينتقمون من المقاتلين بأهاليهم .

ردت لبنى باقتضاب :

_ لم أفعل .

هاجت بلسم و رفعت صوتها لتسمعها لبنى التي أسرعت في مشيها لتبتعد عنها :

_ ماذا عن الباقين ؟! ألم تأخذكِ بهم ذرة رحمة ؟! ... أين قلبكِ الحنون ؟! أين ضميركِ ؟!

ردت لبنى بسخرية :

_ يجدر بكِ أن تسألي هذه الأسئلة للأشاوس " الأبطال".

الفصل الرابع

كان أبو أحمد يقطع الأخشاب التي جمعها من ركام البيوت المقصوفة ، بينما تطبخ أم أحمد على الحطب ، نادت على ابنتها و هي تحاول التقاط أنفاسها بعد أن أصابها الدخان بأزمةٍ صدريةٍ و لوّح وجهها الدافئ .

_ بلسم ... تعالي و ساعديني .

_ حاضرة !

اقتربت رهف الصغيرة ، و قالت بدلال :

_ أمي ، ماذا ستطبخين اليوم ؟

_ لدينا علبة فاصولياء ، أطبخها مع بعض الأرز .

تأففت رهف و ردت :

_ لن تتحلل جثثنا بعدما نُقصف و نتحول إلى أشلاءٍ من كمية المواد الحافظة التي نتناولها في المعلبات !

ردت بلسم مفزوعةً :

_ جثث ! أشلاء ! ... من علّمكِ هذه المفردات ؟

بكت رهف و قالت بحرقة :

_ أشتهي اللحم ... نسيت طعمه !

أخذتها بلسم في حضنها و قالت بحنو و هي تمسد شعرها :

_ لا تحزني يا حبيبتي ، سأشتري لكِ اللحم حتى تشبعي بمجرد أن تنتهي الحرب ، نحن في نعمةٍ كبيرة ، هناك مناطقٌ في المدينة انقطع عنها الغذاء و مات الكثيرون من الجوع !

هدأت رهف و أجابت بامتعاض :

_ أوف ، تعيدون نفس الجملة كل مرة ... عندما تنتهي الحرب ! عندما تنتهي الحرب !

_ ما باليد حيلة .

_ ليتني مع أخي أحمد في الجنة لآكل اللحم كما أشتهي !

سمعتا صوت ارتطامٍ بالأرض ، كانت المغرفة قد سقطت من يد الأم التي تجمدت في مكانها زائغة العينين على وشك الوقوع ، هبت بلسم لتحضر لأمها كرسياً تجلس عليه و هي تسأل رهف موبخةً :

_ من قال لكِ هذا الكلام ؟

بكت رهف التي أفزعها الموقف :

_ الجميع يقول ذلك ، يقولون أن أحمد في الجنة .

_ لا تستمعي لها يا أمي ، رفاقه يبحثون عنه ، و سيبلغوننا عندما يجدونه ، كما أن انتشار هذه الإشاعات مفيدٌ له لو كان حياً ، إذ سيبعده عن عيون العدو .

هدأت أم أحمد و أخذت تلهج بالدعاء لكي يعود ابنها سالماً إلى حضنها .

***

جال حسن بنظره في واجهة قصر أخيه الثري ناقماً ... هذه الأموال المتكدسة تتوق إلى تزكيتها ! فتح الخادم له الباب الكبير فحيّاه و دلف إلى مكتب أخيه بعد أن طرق بابه ، مازال غاضباً على أثر الشجار الأخير ، لكن فكرته لن تمضي بغير أخيه ، جلس يفرك يديه متوتراً ، ثم قال مجاهداً قلقه من ردة فعل أخيه :

_ اممم ... هل سمعت آخر الأخبار يا أخي ؟ صديقك صهيب ترقّى في الجيش ... ربما لو ..

هدر سليم في وجهه غاضباً :

_ أعرف جيداً ما الذي ستطلبه مني ، لكني أدير بيتاً و شركاتٍ و لي زوجةٌ و أولاد ... لن أجاري تهورك أيها الغر الصغير !

غطّى حسن وجهه بكفيه و قال بهدوءٍ استفز أخاه :

_ و هل أنتَ راضٍ عما ستقولك لأولادك و أحفادك ؟ ... كنت قادراً على فعل شيءٍ و لم تفعل ؟

_ و ماذا تعرف أنت ؟! ... مازلتَ صغيراً .

ضحك حسن باستهزاء و قال :

_ صغير ؟ ... المئات في سني و أصغر يحملون السلاح و يقودون المعارك هناك !

كزّ سليم على أسنانه و قال بغيظ :

_ اهتم بشؤونك و حياتك الخاصة و لا تقحم نفسك فيما هو أكبر منك .

ابتسم حسن و قال :

_ لو لم تكن تعرف في قرارة نفسك أني على حقٍ لما فقدتَ أعصابك هكذا ... كل ما أطلبه هو أن تكلمه و تشجعه أو تدعمه فربما يكون شهماً .

_ الشهم لا يترقى في خدمته لملكٍ فاسد ! ... ربما أخسر كل شيءٍ إن كلمته .

_ لو كانت زوجتك و أبناؤك هناك تحت القصف لما جلست مرتاح البال هكذا ... على مهلك يا أخي ، على مهلك !

خرج حسن تاركاً أخاه برأسٍ يغلي بالأفكار ، عبّ سليم قارورة الماء في جوفه ، ثم أغمض عينيه فراودته خيالاتٌ لزوجته و أبنائه بين النساء و الأطفال القتلى ففزع ، حدثته نفسه بأن (صهيب) أصبح بالفعل يملك صلاحياتٍ كبيرةً في الجيش ... ربما يمكنه فعل شيءٍ ما ، لكن من سيقنعه بأن يفرّط براتبه الفخم و امتيازاته لأجل مدينةٍ تافهة ! ... هل يكلمه ؟! ... لن يرمي نفسه للمجهول ، عليه أن يفكر في حل ، الجميع ساكنٌ بحجة أنه يفكر ، و الوقت يمضي و نحن نفكر ، و الأرواح تُزهق و نحن نفكر ، ليت الحرب تنتهي و نحن نسوق هذه الحجة قبل أن تفقد صلاحيتها ! ... لكن ، لو أن أبناء المدينة المحصنة قضوا كل هذا الوقت في التفكير في العواقب لم يكونوا ليدخلوا الحرب من الأساس ! ... يا للتهور !!

***

اصطفت بلسم في الطابور تنتظر دورها في استعمال الحمام العمومي ، كانت تشعر بالحرج و تتفادى نظرات من حولها ، تتمنى لو ترتدي رداء إخفاءٍ عجيبٍ يخفيها عن الأنظار ، بل إن كل من حولها من الفتيات و السيدات كنّ في سرهنّ يلعنّ كل من تسبب لهنّ بهذه الوقفة ، بعد أن كنّ معززاتٍ مكرماتٍ في بيوتهنّ ، ففي زمن الحرب تصبح الحياة شاذةً و الموت مألوفاً ، و تصبح الرفاهية تواطؤاً و شظف العيش رفاهيةً ، و يدور الناس في طاحونة الموت لقضاء أساسياتٍ لحياةٍ تلفظ أنفاسها كل يوم ، مترقبةً ذلك النفس الأخير العزيز !

سمعت بلسم ضجةً في المكان فجالت بنظراتها تبحث عن مصدرها ، و عندها وقعت عيناها على فتاتين تتشاجران ... إحداهما لبنى !

_ هذا دوري ، كيف جئتِ من آخر الطابور و وقفتِ أمامي ؟

_ أنا من سكان المنطقة أفعل ما أشاء ، هل سمعتِ أيتها النازحة ؟!

هاجت لبنى و دفعت الفتاة بقوة :

_ ما الذي تقولينه يا هذه ؟! ... ارجعي مكانكِ .

لم تعرف بلسم متى قررت التدخل ، و متى وصلت إلى جانب لبنى ، لكنها وجدت نفسها توبّخ الفتاة الأخرى بقولها :

_ ليس لكِ الحق في أخذ دورها حتى لو كنتِ من سكان المنطقة .

_ و ما شأنكِ أنتِ ؟!

_ أنا ... أنا ...

تلعثمت بلسم في وجه السؤال المباغت ، لكن لبنى ردت عنها :

_ إنها أختي !

أكدت بلسم :

_ نعم أنا أختها ، و الآن تحركي .

_ و ماذا ستفعلان ؟ سأنادي عائلتي كلها إن أردتما .

توترت لبنى ، لكن غيرها من النازحات في الطابور وقفن في صفها قائلات :

_ ألا يكفي ظلم العدو لنا ، و تتظالمون هنا أيضاً ؟

_ كلنا نعرف أنه دورها فتحركي !

_ أليس عندكِ ذرة حياء ، تصرخين عند الحمام ؟! ألا تكفي وقفتنا المخجلة ؟!

شعرت الفتاة بالإهانة فغادرت متوعدةً تلملم ما بقي لها من كبرياء ، بينما تبادلت لبنى و بلسم نظراتٍ حيرى ، ثم وقفت كل واحدةٍ في دورها كأن شيئاً لم يحدث !

***

كانت الوحوش النارية بلونها القرميدي الثائر و أجنحتها العملاقة و ذيلها الطويل تطوف في سماء المدينة المحصنة و تصيح مزلزلةً القلوب ، تشن الغارات و تسقط الأجرام و تنفث النار بلا هوادة ، و كانت مسيّرات العدو تطوي الأرض مصدرةً أصواتاً مرعبة ، لكن أياً منها لم يكن ليردع أبناء المدينة الذين يدافعون عنها ، اجتمع الأشاوس حول قائدهم (عمر) الذي ناب عن القائد (أحمد) ، في أنفاقٍ تحت الأرض مكنتهم من التحرك كالأشباح ، يقاتلون بأسلحتهم البسيطة التي شقّوها من العدم ، لكنهم صمدوا بل أوقعوا خسائر فادحةً في جيشٍ مدعّم بأحدث الأسلحة و أجود المركبات ، و مدعومٍ بلا شروطٍ من ممالك عظمى ، لكن ذلك كله تقهقر أمام الورقة و القلم الذين حملهما عمر ليشرح الخطة لرفاقه .

انطلق الشبان و تفرقوا ، و كان عمر يدرّب (أمجد) حديثَ العهد بالقتال ، خرجا من النفق أمام إحدى المركبات ، أطلق أمجد و أحرقها ففرح ، و غفل عن الغارة التي باغتته من السماء ، دفعه عمر و أصيب بدلاً عنه ، هرع أمجد لسحبه بسرعة و الاختفاء به .

تجمع الرفاق بعد فترة و رأوه ممداً جريحاً ... لكنه يتنفس :

_ يا إلهي ، ماذا أصاب عمر ؟

تكلم أمجد بأسىً يغالب الدموع :

_ أنا السبب ... لم أكن يقظاً .

_ لا وقت للوم أحد ، بما أنه يتنفس لنبذل جهدنا في إنقاذه .

كان هذا (معتز) أكثر الشبان إلماماً بالخبرات الطبية ، و الذي كان يُعد طبيب الفصيل ، سأل أمجد بلهفة :

_ هل آخذه إلى المستشفى ؟

_ سنمر على المستشفى ثم نعيده إلى بيته .

ثم تفحص جسد عمر و قال بلكنة الخبير :

_ لديه عدة جراحٍ و كسور ، يحتاج للراحة لفترة ... سنحمله أنا و أمجد .

تفاجأ أمجد عندما سمع اسمه و رد بجهوزية :

_ حاضر ! ... متى نذهب ؟!

ضحك مهند و قال :

_ انتظر لأبلغهم بقدومه .

***

كانت بلسم قد أنهت التقديم لإحدى المنح جالسةً في السوق على الرصيف ، لم تتوقف عن التقديم لصديقتها منذ تشاجرتا ، أنجزت بالفعل عدة طلبات ، و كانت تنتظر الردود بفارغ الصبر ، كانت محتارة ... إن كان العدو قد وعد لبنى بالحياة الهانئة و السفر كما تشتهي فلماذا تبحث عن المنح الدراسية ؟ و قررت أنها لو وجدت منحةً لرفيقتها فستساعدها ، عليها الآن أن تزور سلوى فقد مر أسبوعٌ على لقائهما ، قامت و نفضت الغبار عن ملابسها عندما اهتز هاتفها بإشعارٍ بوصول رسالة ، قرأت الرسالة :

" الطالبة : لبنى ...

تم قبولكِ في المنحة ، ...

موعد المقابلة التي ستُجرى عن بعدٍ هو .... "

كانت تلك الرسالة كالغيث للعطشان في صحراءٍ جرداء ، حمدت الله في سرها بصدرٍ بالكاد اتسع للسرور الذي غمرها ، أرادت أن تخبر كل من في الشارع بالخبر ، إلا أنها وجلت عندما تذكرت خصامها مع صديقتها ... كيف ستخبرها ؟! و هل سرقها العدو اللعين أم يمكنها أن تنتشلها ؟! ... غذت الخطا إلى بيت عمر بعينٍ خاشعةٍ تغالب الدموع .

***

جلس أسامة يطالع الرسائل الكثيرة التي وصلته من حسن ، رسائلٌ مثقلةٌ بالعتاب و التذكير ، كان غائباً في متاهات أفكاره و همومه ، و لم ينتبه إلى زميلته في الجامعة التي كانت تخاطبه :

_ أسامة ! أنت تبذل جهداً رائعاً حقاً ، سمعتُ أنكَ جمعت الكثير من التبرعات على حساب المدينة المحصنة ... أسامة ؟

انتبه فجأة و نفض رأسه من الأفكار :

_ آسفٌ يا مروة ، كنتُ شارداً ... هلّا كررتِ ما قلته ؟

سألت مروة بفضول :

_ فيمَ كنت شارداً ؟

_ لا شيء مهم .

_ أخبرني فربما أساعد .

_ طيب ... الأمر أن أحد أصدقائي من المملكة الحمراء يخطط لمظاهرةٍ كبيرةٍ في المملكتين معاً .

تحمست مروة و هتفت :

_ فكرةٌ عظيمة ، و ستزيد الوعي بما يحدث في المدينة المحصنة و تزيد التبرعات ، سنكتب إعلاناً على كل المنصات ، و ننشرها في وقتٍ واحدٍ لكيلا يتمكنوا من إمساك طرف الخيط ، ثم سنجهز الصور و الشعارات ... لا وقت لدينا ، هيا قم للعمل !

انتقلت الحماسة إليه و دبت في روحه الهامدة ، قام مسروراً و قال :

_ لم أعلم أن الفكرة حماسيةٌ لهذه الدرجة ! ... لنبدأ العمل .

الفصل الخامس

جلست بلسم مقابل سلوى تترقب الأخبار ، كانت تعد الأيام عداً لانتهاء الأسبوع ، و بالكاد نامت ليلة البارحة ! و عندما نامت ظلت تحلم بنفسها تتصل على ذلك الهاتف لتسمع صوت أحمد يطبب قلبها المنهك ، قدمت لها سلوى فنجان القهوة التي تعد ضيافةً ذهبيةً في ظل تضخم الأسعار المتسارع الذي أثقل كاهل شعبٍ جائعٍ ، يتكالب فسّاده مع عدوه في امتصاص دمائه و نهش لحمه الذي اضمحل علىٰ عظمه ، ابتسمت بلسم لابتسامة سلوى المطمئنة متجاهلةً أم عمر التي ترمقها بمقت ، حاولت تهدئة ارتجافها و سألت باضطراب :

_ هل أخبركم بأي شيء ؟!

_ سيخبركم _ إن كان قد عرف _ بنفسه .

_ كيف ؟!

_ لقد أُصيب ، و سيعيدونه إلى البيت .

_ هل إصابته خطيرة ؟

ضحكت سلوى و أجابت :

_ لا أعلم ، أشعر بأني أنانية ، لم أهتم لأمر الإصابة بقدر اهتمامي بأني سأراه !

أطرقت بلسم فأتبعت سلوى التي تذكرت أن بلسم مثلها تتوق إلى لقاء أخيها :

_ كما أخبرتكِ ، عمر لا يستسلم ، سيظل يبحث حتى يعرف .

تذكرت بلسم مدى عمق العلاقة بين أحمد و عمر ، و تذكرت أخاها يستفيض في الثناء عليه فهدأت ، انتبهت عندما قالت سلوى :

_ إن كان قد عرف فسأرسل لكِ رسالة .

ثم غمزت لها و قالت :

_ أو تعالي لزيارتنا فقد أحببتكِ .

أومأت بلسم بحياءٍ و احتضنتها مودعةً ... لم تكن تعلم أنها المرة الأخيرة التي تراها فيها !

***

كان الشباب في فريق حسن يعملون بهمةٍ و وجوهٍ وضّاءةٍ مفعمين بالأمل ، أخيراً وجدوا منفساً للغضب الذي كبتوه طويلاً ، كانت قلة الحيلة تقهر عزائمهم و تُنكّس رؤوسهم ، لكنهم أخيراً سيقدمون شيئاً ما ! لن يحملوا الأسلحة و يطيروا إلى القتال ، لكنهم يحاولون .

_ كله جاهزٌ يا فريق ، سننشر موعد المظاهرة عند الساعة الثامنة تماماً .

كان حسن يقود الفريق و يبث في رفاقه الهمة العالية ، نادى عليه صديقه (صلاح) الذي كان ينقّل بصره بين هاتفه و ساعة يده متعجباً :

_ حسن ... تعال و انظر ! هناك من لم يلتزم بالموعد و نشر الإعلان بالفعل .

عبس حسن و مد يده :

_ هات لأرى .

ظهر الإعلان أمامه : # المدينة المحصنة تحترق # سنشعل الساعة العاشرة # مظاهرةٌ في المملكة الصفراء # احفظوا التاريخ .

ابتسم و هتف بصوتٍ عالٍ :

_ لقد فعلتها يا أسامة !! ... رائعٌ يا صديقي !!

تجمع الشباب حوله ليفهموا ، فقال بزهوٍ و حماس :

_ نسيت أن أخبركم أن المملكة الصفراء ستكون معنا في نفس اليوم و نفس الوقت .

صفّق أعضاء الفريق بجذل ، و تأجج حماسهم و زادت ثقتهم .

***

فتح عمر عينيه أخيراً بعد أن كان في غيبوبة ، كان يتنفس بصعوبة بسبب رطوبة الأنفاق ، رأى خيال رجلين حوله ، و استبدت به آلام جراحه ، شعر بجسده يتفسخ من الألم ، و بمطارقَ تدق عظامه ، حاول أن يعتدل فلم يستطع ، صرخ صرخةً مكتومة ، ثم اتضحت رؤيته لمن حوله ، رأى معتز و أمجد ، قال معتز :

_ حمداً لله على سلامتك ، من الجيد أن وزنك نقص و إلا لما استطعنا حملك كل هذه المسافة .

_ لماذا أنا هنا ؟ ... لنعد إلى الرفاق .

رد معتز بنبرةٍ آمرة :

_ ستعود إلى بيتك .

عقد عمر حاجبيه بوهن و صرخ بما أوتي من قوة :

_ ما هذا الهراء ؟! أعيداني بسرعة ، لا وقت للراحة و القتال مشتعل .

_ ستعطلنا بإصابتك هذه ، خذ قسطاً من الراحة و عد إلينا عندما تسترد عافيتك .

أرخى عمر رأسه و استسلم ، كانت رأسه ثقيلةً جداً و لم يكن يقوى حتى على الرفض ، اقترب منه أمجد و قال متأسفاً :

_ أرجوك سامحني يا قائد ... أنا السبب في إصابتك .

أغمض عمر عينيه و هو يردد بوهن :

_ لا عليك يا أمجد ، لا عليك .

تكلم معتز :

_ على الأرجح هو لا يتذكر ما حصل ، و سيستمر في فقدان ذاكرته بشكلٍ دوري ، لكنه سيتحسن ... هيا لنحمله ، كدنا نصل .

***

وصل عمر إلى بيته عند الفجر يتكئ على رفيقيه الذين تركاه بسرعةٍ عند باب البيت و عادا أدراجهما ، كان البيت كما تركه ، و صورة والده البهية تحييه ... يا والدي

لو تشفي فؤادي بنظرة فخرٍ فقد جاهدتُ لأصبح انعكاساً لك ! أنا مصابٌ يا والدي ، لكني سأعود ، و سأظل أجاهد حتى أستحق أن يُتبع اسمي باسمك أو ألحق بك !
دلف إلى البيت يتوكأ على أي شيءٍ في طريقه ، كان الظلام يخيم عليه ، اشتم رائحة بارودٍ أوجس منها خيفة ، نادى بصوتٍ واهنٍ منخفض :

_ أمي ... أنا في البيت .

_ أهلاً بكَ يا بني .

لم يكن ذلك صوت أمه ! رأى خيال شخصين في مؤخرة البيت، اقترب أكثر فاتضح منظر الركام و الحطام و انكشف القمر أمامه ! كان أبو أحمد يحمل المجرفة بينما تحمل له ابنته مصباحاً تضيء به المكان ... لكن ! لمَ المجرفة ؟ و أين أهله ؟!

تهالك على الأرض ، بينما تكلم أبو أحمد موضحاً ما حدث :

_ قصفوا بيت جاركم و تهدّم على أثره نصف بيتكم .

جحظت عينا عمر ، و سأل بشفتين ترتعشان :

_ من ؟ ... من بقي منهم ؟

هز أبو أحمد رأسه نافياً... لم يبقَ منهم أحد ، كانوا جميعهم في النصف الذي تهدم من البيت و سقطت الجدران عليهم ، دمعت عينا عمر ، بينما تكلم أبو أحمد مواسياً :

_ حدث ذلك مساء البارحة ، تعاونتُ مع الجيران على إخراجهم و دفنهم ، قالوا بأن والدك مدفونٌ في الأرض التي على يمين البيت فدفناهم فيها بجانبه ، بما أن المقابر قد طفحت ! ... جميعهم مع بعضهم هناك .

لم يرد عمر عليه ، تسارعت فجأةً أمامه كل اللحظات التي طالبته فيها أمه بالسفر ، كل تلك المرات التي تحدثت فيها عن الفقد ، عن الأمان ، و كل تلك اللحظات التي رجته فيها ألا يشترك في القتال ، شعر بسياط الندم تضرب على صدره و ردد بحرقة :

_ أنا السبب ، أنا السبب !

تفاجأ بصوت الفتاة الواقفة بجانب والدها تكلمه من بين دموعها :

_ كنتُ معهم في آخر ساعاتهم ، إياكَ أن تقول هذا الكلام فسلوى لم تكن لتسمح لك ! سأخبرك بما قالته عنك لعل ذلك يكون سلوى لك ، و لتعلمْ أنها دفنت باسمةً و النور يشع من محيّاها !

و هكذا بدأت بلسم تحدثه عن مديح أخته له و دفاعها عنه أمام والدته و دعمها لكل قراراته و فخرها بجهاده ، وجدت كلمات هذه الفتاة الغريبة طريقها إلى قلبه و هوّنت عليه ، سلوى ... يا أيتها السلوى ما أغلاكِ و ما أعظمكِ ! كيف كان سيحتمل هذه الحياة بدونها ؟! و كيف سيحتملها الآن ؟! ... كأن طيفها تراءى له تربت على ظهره ، تسليه في حزنه و ضعفه كعادتها ؛ لتذكره بأن المقاتل لا يخاف في الله لومة لائم ، و أنه على الجبل الشامخ القوي ألّا يهتز مهما حصل ! ... لو أنها تعلم أنه كان يستمد بأسه و قوته من إيمانها به ، لو تعلم أنها كانت كهفاً آمناً يأوي إليه ، فيدها الحانية كانت تربت على ظهره ، و قلبها الدافئ يحتوي و يخبئ خيباته و هزائمه ... ها قد رحلت و تركته جبلاً ظلّ على عهده لها شامخاً ، رغم أنها قد أجدبت حياته .

سلّم أبو أحمد عليه و ودعه :

_ ستحضر لك أم أحمد الإفطار في الصباح فترقب وصولها ، أنتَ الآن فردٌ من عائلتنا و لن نتركَكَ وحدك ، لا تتعب نفسك ، فأنت مصابٌ و تحتاج للعناية ، كما أننا الوحيدون الذين نعرف بعودتك ، لذلك انتظرنا وصولك .

ابتسم عمر بوهن و جال بنظره في البيت يتفحص ما بقي منه ، وجد غرفتين بحالٍ جيدة ، المطبخ و الحمام بحاجةٍ إلى بعض الإصلاحات لكنهما قابلان للاستخدام ، و هذه المنطقة المكشوفة في مؤخرة البيت يمكنهم أن يزيحوا ركامها و يستروها بستار ... لحق أبا أحمد بما استجمع من سرعة و نادى عليه :

_ يا عم .

وقف أبو أحمد و رد بصوتٍ خافت :

_ نعم يا بني .

اقترب منه عمر و قال:

_ ما رأيكم أن تأتوا لتسكنوا هنا في البيت يا عمي بدلاً من الخيمة ؟!

تبادل أبو أحمد و ابنته نظراتٍ محتارة ، أتبع عمر محاولاً إقناعه :

_ أرجوك يا عم ، لماذا تبقون في خيمة ما دام بيتي قد أصبح فارغاً ؟

ثم لاحظ أنه قد طال صمت أبي أحمد فاستطرد بهدوء :

_ لن أضغط عليكم إن كنتم خائفين .

ضحك أبو أحمد و رد :

_ أضحكتني و أنا لا أرغب في الضحك ... الحال من بعضه !

تذكر عمر أنهم يترقبون أخبار ابنهم منه فقال متأسفاً :

_ آسفٌ لأنني حتى الآن لم أعرف أخباره .

التمعت الدموع في عيني بلسم ... حمدت الله على أنها لم تعلق آمالاً ثقيلةً عليه ، فالآمال الثقيلة إن خابت و سقطت عليها ستهرسها ! تمنت للحظةٍ لو أخبرهم بأن يحتسبوه شهيداً !! فقد تعبوا من مجابهة أمواج الاحتمالات المتلاطمة و اشتاقوا إلى برٍ تستقر عليه أقدامهم ، تفاجأت عندما سمعت أباها يقول باطمئنانٍ تتوق إليه :

_ احتسبته وديعةً عند الله و لن يضيعه !

نعم ، هذا الهم أثقل منها ، لماذا كانت تكابد لحمله ؟! لقد قامت بما تقدر عليه بالفعل ... و الآن لتوكله لرب السماء ! و ما دام الأمر كذلك ، فلْتطمئن أيها القلب المحتار و لتهدأ .

في الصباح انتقلت عائلة أبي أحمد إلى بيت عمر ، شغلوا إحدى الغرفتين بينما شغل عمر غرفته ، و كانت أم أحمد تعتني به كأنه ابنها ، و تناوبت مع زوجها على تضميد جراحه ، و اجتهدت في إعداد ما طاب من الطعام رغم شح المكونات و ضعف شهية المريض ، ليس للطعام وحده بل للحياة كلها ! ... مرت تلك الأيام الثقال بشقّ الأنفس ، كان في حال مزرٍ بسبب إصابتيه الداخلية و الخارجية ، و وجودهم حوله رحمةٌ طالته و شدت أزره .

***

كان الشاب الجريح الذي شُوهد في المدينة الخضراء في يوم الانفجار يتماثل للشفاء ، و رغم أن العدو سلبه يده إلا أنه أصرّ على استكمال جهاده مع شباب المدينة الخضراء ، أُعطي هويةً مزورةً فصار يحمل اسم (ليث) ، و صارت حياته مع أولئك الشبان المطاردين المطلوبين للعدو ، الذين يعيشون حياتهم على فوهة بندقية ، فإما أن يطلقوا على العدو بها ، و إما أن تنفجر ذخيرتها فيهم !

قال له أحدهم :

_ قد لا نكون تنظيماً كبيراً مثل الأشاوس ، و قد تختلف المسميات لكننا جميعاً نجتمع على الجهاد .

رد عليه ليث :

_ بالضبط ! كلنا واحدٌ يا أخي .

الفصل السادس

_ استمرت المظاهرات أياماً طويلة ، هذا نجاحٌ باهرٌ يا أسامة .

_ لا أكاد أصدق ما يحدث يا حسن ، كأن الناس كانت تترقب الإشارة لتخرج ! المقاطعة في أوجها ، حتى أنهم صاروا يحولون دون تصدير الموارد للمملكة البيضاء بحواجز بشرية !

_ لا تقل المملكة البيضاء ، فهذا احتلالٌ عابر .

رد أسامة بجمود :

_ لا أحب أن أغمض عيني عن الواقع .

_ الواقع يتشكل حسب ما نؤمن به و نعتقده ، فأفكارنا تتحول إلى أفعال ، و أفعالنا هي الواقع ... و من يتحكم فيما نفكر فيه و نؤمن به يتحكم بالواقع ... لا تسمح لهم بالتحكم فيك !

ران صمتٌ على المكالمة ، حتى قطعه حسن بقوله :

_ طيب ! ... فلنرفع وتيرة الأحداث ! ... لنطالب الجيش بالتحرك ، مثلاً لنهتف : يا جيش يا كسول ... احمل سلاحك على الأصول ، و بعدها أفكر في الإضراب الشامل ، سيكون ورقةً ضاغطةً على الملوك .

_ أفكارٌ جيدة ، لكنها خطيرة ، التهديدات بدأت تطالنا ، و الشرطة لا تكف عن الاعتقال .

_ فلنصبرْ كما صبرت المدينة المحصنة .

_ و هل لديها خيارٌ آخر أصلاً ؟

_ بالطبع ! ... كان بوسع أهلها الانسلاخ من عقائدهم و تسليم الأرض ، و عُرضت عليهم زهرة الدنيا كثيراً لو تعلم و رفضوها ، كان هذا العذاب أهون عليهم من الخنوع و الرضوخ لها ... و ها هم يقدمون الأرواح و الأموال بغير حسابٍ و لا يستسلمون .

_ لم أفهم يوماً كيف يعدون هذا انتصاراً ... انتصارٌ على آلاف الجثث المتكدسة !

_ انتصارهم في قوة إيمانهم و عزتهم !

ثم أتبع بامتعاض :

_ كم أرجو أن ننتصر نحن كذلك و نكف عن بناء مستقبلنا على جثثهم !

_ هل أنتَ منهم يا أخي ؟! ... لماذا تتحامل علينا هكذا ؟!

_ هل أصدقك إن قلت أني رجوت لو كنتُ معهم ؟ و كم أستغرب من الدنيا التي تستمر بالمضي ، و من الأرض التي تستمر بالدوران رغم كل ما يحدث ! ... لا أتحامل علينا ، بل على تخاذلنا و صمتنا ... نحاول جاهدين أن ننأى بأنفسنا عن المخاطر لكي نحفظها ، لكننا في الحقيقة نخسرها و نخسر قيمتنا و تنفلت منا قيمنا ، و نتحول إلى كائناتٍ استهلاكية ضعيفة تمشي وراء من يطعمها و ما أسهل اغتصاب مبادئها ! ... لن أتحصن بعد اليوم إلا بالمواجهة !

سكت أسامة مفكراً ، إنه يغار من حسن ، فحسن صادقٌ مع نفسه ، يواجه نفسه بالاعتراف بتقصيره و يبذل قصارى جهده ، أما هو _ أسامة _ فيرتاح برمي كل اللوم على كاهل الملوك و يتغافل عما في وسعه ... ليس بعد اليوم ، سينتصر على نفسه ! هتف بثقةٍ و اعتزاز :

_ و أنا مثلك لن أتوانى بعد اليوم !

أنهى أسامة مكالمته مع حسن ، و عندها انتبه إلى شخصٍ بجانبه كان يستمع إليه بإنصات ، كانت مروة تطالعه بنظراتٍ أربكته لم يتمكن من تسبير أغوارها ، تكلمت أخيراً :

_ انظر يا أسامة ، التبرعات زادت بكثرة !

_ أهلاً مروة ، كنتُ أريد أن أشكركِ ، لولا تشجيعكِ لنا لما أنجزنا كل هذا .

_ في الحقيقة كنت سأطلب منك طلباً بهذا الخصوص .

_ تفضلي .

_ إن لم يكن هناك مانع ، هل يمكن أن تعينني نائباً مشرفاً لك في الفريق ؟

رد أسامة بسرعة :

_ اعتبري نفسك كذلك ، و سأبلغ الفريق .

غادرت مروة و قد ظفرت بما أرادت ، بينما غاص أسامة في أفكاره ، يكاد يقسم أنه يعيش في عقله أكثر من الواقع !

***

أخيراً وصلت بلسم إلى خيمة لبنى و أمها ، كانت تغالب الخجل و الكبرياء منذ وصلتها رسالة القبول في المنحة ، تفكر و تحسب الاحتمالات و تراجع الأحداث ، و الآن ستضع حداً لهذا الهم و تلقيه في ملعب صديقتها ... كأن عقلها أدمن الهموم ! ما إن يعتقها من التفكير في همٍ حتى يرميها وسط نار همٍ آخر ، مسؤولياتٌ و أحمالٌ تنوء بظهرها ، و ذكرياتٌ ملحةٌ تئن من آلامها ، و أطلال أحلامٍ تحاول لملمة حطامها ... ليست وحيدةً فالكل يهرب من سطوة الحرب إلى داخله ، ينقب عن شخصه القديم الذي كاد ينساه ، و يهدهد ما تبقى له من آمال ، يتجلد ما أمكن أمام الناس ، و يبث الكثير من الشكاوى المخضلّة بالدموع على عتبات السماء .

وقفت و نادت على لبنى فخرجت إليها ، كانت لبنى شاحبةً شحوب الموتى ، لم ترفع عينيها إلى بلسم التي أمسكت يديها بغتةً و هتفت :

_ مبارك ! ... لقد حصلتِ على قبولٍ مبدئيٍ في منحةٍ كاملة !

مرت لحظاتٌ اتسعت فيها عينا لبنى و لاح بريقها على استحياء ثم خبا بسرعة ، لربما جاء هذا الخبر لينتشلها من صراعٍ ثقيلٍ غرقت فيه ... ربما !

و ربما زاد من اتقاد الجمر الذي تشعر به يغلي في دماغها ، لم تنبس ببنت شفة ، ناولت بلسم هاتفها الذي طلبته لترسل إليه الرسالة بالتفاصيل ، ثم عادت إلى الخيمة دون أن تدعوها حتى للدخول ... و هذا بالضبط ما كانت ترجوه بلسم ، أن تتركها مع الهاتف لوحدها !

***

انخرط ليث في الجهاد مع شباب المدينة الخضراء ، ساعدته خبراته الهندسية في التجهيز للعمليات ضد العدو ، و كان على الشباب المطاردين أن يغيروا مكان اجتماعهم كل فترة ، و اجتماعهم اليوم كان في بيت (مازن) ، سمعوا فجأةً صوت امرأةٍ تصرخ :

_ صرصور ... صرصور !

أسرع مازن ينظر من النافذة بحذر و قال :

_ هذه الإشارة يا شباب ، العدو قادم ، فلنغادر بسرعة !!

أسرعوا يتسللون من البيت ، و بعدما استقروا في مكانٍ بعيد سأل ليث متعجباً :

_ هل كانت زوجتك تصرخ لتنبهنا يا مازن ؟!

_ نعم .

فغر ليث فاه بتعابير بلهاء ، و سأل :

_ ألا تخاف عليها ؟

_ بالطبع لا ، ستتدبر أمرها ... المسكينة اعتادت على هذه المواقف .

ربت (حمزة) على كتف ليث و قال :

_ لا تقلق يا رجل ... نساؤنا قويات ، و إلا فمن ربّى أبطال بلادنا ؟!

ضحك مازن و قال :

_ يخفن من الصراصير و لا يخفن من الأعداء !

استكمل الشباب طريقهم إلى أحد الكهوف في الجبل ليبيتوا فيه ، ثم طفا سؤالٌ على السطح ... من سيبدأ الحراسة الليلة ؟!

نظر الجميع إلى ليث الذي قال برجاء :

_ إكرام الضيف واجبٌ يا جماعة .

رد عليه مازن مازحاً :

_ كلنا واحدٌ يا أخي !

و بعد شدٍ و جذبٍ جلس ليث على صخرة عند مدخل الكهف يقول متوعداً :

_ سأريكم يا أهل المدينة الخضراء ... تعالوا إلى مدينتي فقط !

و عندما نام الجميع ، لم يؤنس وحدته إلا أطياف أهله يناجيهم ، و يشكو للنجوم أنه اشتاق بشدةٍ إليهم ، و يحمّل القمر سلاماً و قبلاتٍ لهم .

***

_ أمي الحبيبة أين أنتِ ؟!

_ هنا في المطبخ .

بدأ يغني لها :

_ ماما يا نبع الحنان ، ماما يا أجمل إنسان .

_ خيراً إن شاء الله ... ما سر هذه البهجة ؟

همس لها في أذنها :

_ وجدت العروس المنشودة !

قبّلته و أطلقت زغرودةً طويلة ، ثم بدأت تلف و تدور في البيت و تتكلم بسرعةٍ مفعمةً بالسعادة :

_ لنذهب و نخطبها حالاً ، سأجهز لك أكبر حفلٍ في المملكة يا بني .

لحقها و أمسك كفيها بلطفٍ و قال :

_ على رسلكِ يا أمي ، سيكون حفلاً بسيطاً لأن الحرب قائمةٌ في المدينة المحصنة ، كما أننا في منتصف الليل ، و لا أحد يطرق الأبواب في هذا الوقت .

هدأت و سألته بلهفة :

_ ألن تخبرني من هي ؟

هم بإخبارها لكن صوت طرقٍ على الباب قاطع الحديث ، دمدمت أمه بغيظ و هي تمشي لتفتح الباب :

_ معك حق ! ... لا أحد يطرق الأبواب في هذا الوقت ماعدا أم حامد !

فتحت الباب لتطالعها العيون الفضولية باتساع :

_ سمعتُ زغرودةً مدوية ، هل هي من بيتكم ؟

نظرت الأم إلى ابنها محتارةً أتخبرها أم لا ، هز رأسه نافياً ليحفظ الخبر من الانتشار في المملكة كلها ! فهمت أمه و ردت :

_ تفضلي تفضلي يا عزيزتي ، ربما هي من شقةٍ أخرى ، هل أعد لكِ القهوة أم الشاي ؟

لم تقتنع أم حامد لكنها دخلت ، زفر الاثنان بارتياح ... لو دخلت عليهم قناة أخبارٍ لكان أهون !

***

هدر حسن في الهاتف :

_ ماذا تقولين يا مروة ؟! ... كيف اختفى فجأة ؟

_ أخبرتك بما أعرفه ، استيقظ أهله فلم يجدوه في البيت ... ربما هرب ! ... و من فضلك لا تعاود الاتصال بي فأنا مشغولة .

أغلقت الخط و تركت حسن حائراً يخاطب نفسه :

_ لا يعقل أنه هرب ، هل سُجن ؟ و من وشى به ؟ ... أين سيكون ؟!!

سأله زميله صلاح الذي كان يقف بجانبه :

_ إذن ماذا عن العمل ؟ ... هل سنكمل العمل مع هذا الفريق ؟

دمدم حسن بحنق :

_ يبدو أن أسامة لم يحسن اختيار نائبه ، إنها ترفض العمل و تتهرب من اتصالاتي .

_ هل سنتوقف ؟

رد حسن بانفعال :

_ لا لن نتوقف !

أخفض صلاح صوته و اقترب من حسن سائلاً :

_ ألست خائفاً أن يشي بك ؟ ... هذه الأخبار ستقوّض عزيمة الفريق و ترعبهم .

كان حسن يدرك ذلك جيداً ، اجتمع بفريقه و خطب فيهم :

_ من كان خائفاً و أراد أن ينسحب فليفعل الآن ، لأننا سنبدأ مرحلةً صعبةً لا رجعة فيها .

أطرق الشباب رؤوسهم و ظهرت الحيرة و القلق على وجوههم ، ثم انسحب عددٌ قليل منهم ، هتف صلاح مشجعاً :

_ إذن ما هي الخطة القادمة ؟

نظر حسن إليهم بامتنان و هو يستمع إلى الاقتراحات ، عليه أن يحفظ هذه الوجوه ، فهو يظن أن هؤلاء الأحرار ربما يكونون من قادة المستقبل ...(ربما !) لأنه في بلادٍ تعشق تهميش العقول النيّرة أو تصديرها أو وأدها في المهد ، بلادٌ تعج سجونها بالأحرار بينما يحكمها السجناء ! حيث تجد دائماً دائماً شخصاً غير مناسبٍ في مكانٍ مناسب .

***

كان الضابط يتمشى في الغرفة بخطواتٍ ثقيلةٍ و نظراتٍ شامتةٍ بالشاب المقيد الذي ظهرت عليه علامات التنكيل ، قال بمكر :

_ أمك تبحث عن العريس ، تُرى من سيئة الحظ التي ابتليت بك ؟

ضحك أسامة ملء فيه و رد بهدوء :

_ أنا لم أخبر أمي باسمها حتى .

ثم ضحك متحدياً و قال :

_ كله بفضلكِ يا أم حامد ... لا بد أن تتعرف عليها فهي تعرف كل صغيرةٍ و كبيرةٍ في المملكة !

_ هل تسخر مني يا غبي ؟ تكلم بسرعة و أفصح عن كل شيء ، نعرف أنكَ تنسق مع فريقٍ في المملكة الحمراء لإثارة الشغب ، هناك من وشى بك .

بصق أسامة دماً و دمدم بقهر :

_ الوغد !!

الفصل السابع

كانت الأسرة مجتمعةً في جلسة سمرٍ تساعدهم على تناسي الأصوات المرعبة التي لن يعتادوا عليها أبداً ، و كان أبو أحمد يحاول دائماً أن يشرك عمر في جلستهم لكيلا يتركه وحيداً غارقاً في حزنه ، أخذت أم أحمد تصب الشاي في الأكواب عندما سألت بلسم معلقةً على الأصوات :

_ لماذا لا تنزل هذه الوحوش إلى الأرض أبداً .

ردت أمها :

_ هذا ما ينقصنا !

ران صمتٌ على المكان حتى تكلم عمر بصوته الضعيف :

_ هذا لأن هذه المخلوقات رحيمةٌ و ودودةٌ للغاية .

سألت رهف بانفعال :

_ ماذا ؟!!

ضحك عمر و أكمل :

_ نظرها ضعيف ، و هم يحلّقون بها على مسافةٍ تضمن ألا ترى هذه المخلوقات الأبرياء الآمنين الذين تقصفهم على الأرض ، فلو اقتربت منا أكثر لأشفقت علينا و ما قبلت أن تقتلنا حتى لو قتلوها ! و لو نزلت إلى الأرض فلن تؤذينا و لن يستفيدوا منها ... خلاصة القول : لأن الوحوش أرحم من البشر !

ضربت أم أحمد كفاً بكف :

_ الوحوش أرحم من البشر ... يا لها من إجابة !

أتبع عمر :

_ لكن قوتها أكبر و تدريبها أرخص .

ضحك أبو أحمد و قال محاولاً أن يسعد عمر :

_ أنت ذكيٌ جداً يا بني .

و ردت أم أحمد :

_ إن لم تخني الذاكرة ، أذكر أنك كنت الثاني على الدفعة بعد ابني أحمد .

ضحك عمر و رد بسرعة :

_ نعم يا خالة ، لكن لا تفرحي كثيراً لأن الفارق بيننا كان بسيطاً .

ردت بزهو :

_ لكنه يبقى الأول !

***

نقر ليث على كتف مازن النائم .

_ مازن ... مازن ، دورك في الحراسة .

تقلب مازن و رد بصوتٍ ناعس :

_ أريد أن أنام .

رش ليث الماء على وجهه و قال :

_ صدقني و أنا كذلك !

قام مازن متثاقلاً ليبدأ الحراسة بينما كان ليث يجاهد لينام منزعجاً من شخير حمزة ، قام ناقماً و توغل في الكهف أكثر ، سمع صوتاً يشبه الشخير فقال :

_ حقاً يا حمزة ؟! ... لا أصدق أن شخيرك يصل إلى هنا .

لكن الصوت كان يعلو كلما توغل أكثر ، مشى بحذرٍ و قلبه ينتفض بقوة ، تناثر بعض الحصا حوله فأيقظ الكائن النائم ، تجمد في مكانه عندما رأى عيوناً وديعةً برموشٍ كثيفة تلمع في الظلام الدامس ... عيوناً ضخمةً جداً .

في الصباح تجمع الشباب حول ليث الذي كان يلاعب حيوانه الأليف الجديد ، سأل أحدهم مرتاعاً :

_ ما هذا يا ليث ؟!

_ اهدأ ... مجرد وحشٍ ناري !

_ كيف أهدأ ؟ ... هذا الوحش قتل الآلاف منا .

رد ليث برتابة :

_ لم يفعل .

هاج الشباب و انتفضوا عليه و أخافوا الوحش ، أبعدهم عنه و هدأهم و شرح لهم عن هذه المخلوقات ، و كان استيعاب الخبر صعباً على أناسٍ استضافوه في أعتى كوابيسهم ! لكن عيونه البريئة خلبت ألبابهم و أسرتهم ، سأل أحدهم :

_ هل يمكننا الاستفادة منه ؟!

رد ليث :

_ لا أعرف كيف يدربونه و لا أريد أذيته .

_ لن نستطيع إخفاءه ، سيجدونه عاجلاً أم آجلاً .

كان الجميع يفكر ، حتى تكلم ليث بحماس :

_ لدي فكرة !

_ تكلم يا مهندس .

***

_ ألن تنطق يا فتى ؟! ... الشرطة من المملكة الحمراء على الخط ، و المكالمات بين الممالك مكلفةٌ كما تعلم ، أم تريد أن نأخذ ثمنها من والديك ؟!

كان الضابط الخبيث يدخل عليه بعد كل حفلة تعذيب ، قال بشماتةٍ و هو يقترب من الشاب الذي يلهث من التعب :

_ آه تذكرت ! ... أهلك يئسوا من إيجادك و يستقبلون التعازي ... المسكيين ! يعاني وحده و لا أحد يبحث عنه .

_ اخرس !

أشار الضابط إلى رجاله و هو يقول :

_ خذوه إلى العزل الانفرادي ، ستتخمر هناك !

***

_ الشرطة تزداد عنفاً في قمع المظاهرات ، الناس بدأت تهاب الخروج .

رد حسن على صلاح :

_ لا أفهم كيف يفكر جنود الملك ! ... كأنهم أوعيةٌ لتنفيذ الأوامر بلا عقل !

_ المال مسكرٌ ويذهب العقل يا صديقي .

غضب حسن و قال بانفعال :

_ لن أستسلم ! ... اتصلت بناشطين في الممالك الأخرى ، يمكننا نسخ ما فعلناه مع المملكة الصفراء ، و الخطوة القادمة هي الإضراب الشامل ، لنرفع شعار : لن نعمل حتى تتحرك الجيوش !

_ خطوةٌ جريئة ، لكن ألن نعاود العمل مع ذلك الفريق من المملكة الصفراء ؟!

_ للأسف ... قطع الاتصال بي و انكب على جمع التبرعات ، يبدو أنهم هابوا بعد اختفاء أسامة .

_ أرجو أن يكون بخير .

تنهد حسن و قال بأسى :

_ و أنا أرجو ذلك .

***

طُرق الباب ، فأسرعت بلسم لتفتحه ، و ما إن فعلت حتى تفاجأت بلبنى تقف أمامها بخجل .

_ عذراً على الإزعاج .

ابتسمت بلسم و سحبتها إلى الداخل بلهفة مرحبةً بقدومها ، جلست لبنى تنتظر حتى جاءت بلسم تحمل الشاي ، قالت لبنى باقتضاب :

_ شكراً لكِ ، لقد أجريت المقابلة .

_ و كيف كانت ؟

_ شرحت لهم وضعي و أنني إن لم يعد إخوتي فلن أسافر و أترك أمي وحيدة ، و بحمد الله كانوا متفهمين .

_ الحمد لله .

ثم ناولت بلسم كوب الشاي لصديقتها و هي تقول :

_ اعذريني لأن الشاي بدون سكر ، فسعره غالٍ جداً و لم نعد نشتريه .

_ لا بأس فنحن مثلكم ... لقد سادت شريعة الغاب في المدينة بعد غياب القانون .

تنهدت بلسم و ردت :

_ الحرب كالريح العاصفة ، كشفت معادن الناس ، بعضهم ثبت أمام ضرباتها العاتية ، و كثيرون انفلتوا و طاروا معها .

وجمت لبنى فأتبعت بلسم :

_ ابتلاءاتها التي نزلت دفعةً واحدةً عرّتنا أمام أنفسنا و أمام الناس ، تلاشت الفوارق الاجتماعية و نزلنا كلنا نفس المنازل و تجرعنا من نفس الكأس ، لا أقنعةً نلبسها و لا حُلياً نواري بها حقيقتنا ؛ فتكشفت لنا العلل التي لن نواريها إلا بأن نصلح حقيقتنا ، و ربما يكون هذا الكلام قاسياً علينا ، فنحن غالباً لا نكون في الحرب على طبيعتنا و تكون عقولنا مستنزفةً و ليست على ما يرام .

_ أشعر بأننا لن نتفاجأ بأي شيءٍ في المستقبل ، فلم يبق شيءٌ لم نره !

_ بالضبط ، هذا الطرْق المتتابع علينا صقلنا جيداً و لقننا الدروس بروية ٍ؛لنثبت في وجه أي بلاءٍ في المستقبل إن عشنا لنواجهه !

ردت لبنى بتذمر :

_ ابتلاءاتٌ ابتلاءات ! ... أليس لنا في الدنيا نصيب ؟!

_ كلما كنت أقول لأخي هذا السؤال كان يرد بنفس الإجابة : أمَا رضيتِ لو ذهب الناس بالدنيا و ظفرنا نحن بالآخرة ؟

ثم ضحكت للذكرى و أتبعت :

ربما نظفر كلنا بالآخرة بسبب هذه الحرب ، فهي تغسلنا من ذنوبنا و نتوب إلى ربنا فنتقرب إليه بصبرنا ، و يصطفي منا الشهداء ، و ربما ندخل كلنا الجنة ، فإذا شفع كل شهيدٍ لسبعين من أهله لم يبق أحدٌ بلا شفاعة .

_ أعجز أمام قدرتكِ على رؤية الخير في طيات كل شيء ... لكن ، كأنكِ تقصدينني بكلامك عن المعادن !

هزت بلسم رأسها نافيةً و قالت بامتنان :

_ بل لا أجد أنقى من معدنك !

_ كيف ؟!!

_ عندما أعطيتني الهاتف رأيت رقم الضابط اللعين الذي يحاول الاتصال بكِ و استمالتكِ بلا فائدة ، أنتِ لم تقبلي بالعمل معهم .

انهمرت الدموع من عيني لبنى و قالت :

_ كان قراراً صعباً ، و كنتُ أتوق إلى إخراج والدي و إخوتي من السجن ، لكنني متأكدةٌ من أنهم لو خرجوا بهذه الطريقة فسيسلّمون أنفسهم للعدو من جديد ! ... لن يقبلوا بهذا حتى بوجود الخلافات السياسية بينهم و بين المقاومة ... لن يخونوا شعبهم .

_ لم تكن المقاومة لتنجح لولا أن وراءها شعباً أصيلاً يدعمها و يحمي ظهرها ، فمعظمنا إما مرابطٌ في الثغور و إما مصبّرٌ في البيوت ، و يكمّل بعضنا بعضاً .

ردت لبنى بانفعال :

_ لكني مازلت غير راضيةٍ عما فعله الأشاوس ... هذا الانفجار لم يحرق العدو وحده بل حرقنا أكثر منه حتى !

_ لكن الظلم يتكدس علينا يوماً بعد يومٍ حتى كاد يدفننا و نحن أحياء ، و شمس حقنا توارت خلف الغيوم التي تلبدت و عواصف الاحتلال ما انفكت تقلب حياتنا ... هذا الانفجار لو لم ينفجر فيهم لانفجر في داخلنا و حرقنا بصمتٍ وحدنا ، و عندها سيطبخ العدو مؤامراته على نارنا الساكنة حتى تنضج و لا نتمكن أبداً من استعادة أرضنا ، سنعيش في جوٍ ضبابيٍ غائمٍ يتنكر لوجود شمسنا حتى نُقتل تباعاً بمعزلٍ عن الأنظار في الضباب ، إننا من طينة هذه الأرض التي تشربت بدماء أحبابنا الذي قتلهم عدوٌ يسرح و يمرح أمامنا ! ... ما المتوقع منا برأيك ؟

_ لكن ... ألم تكن الجراح التي فينا تكفينا ؟!

_ كلنا جرحى ، و كلنا نجدّل نياط قلوبنا لنربط على قلوب غيرنا ، حبالٌ تلف قلوب الجميع ، فكلما تراخى أحد القلوب شدّ أزره الباقون ! ... هذه هي حياتنا .

ردت لبنى و هي تبكي :

_ كفاكِ تجلداً يا بلسم ! إننا نبيت على وجعٍ و نستيقظ على فقدان ، نحترق و نحن ننتظر هذا العالم الحقير أن يتحرك ، لكنه لن يفعل ! ستمر مصيبتنا كما مرت غيرها ، و سينسى الناس و نحن نرسّب الحزن فينا حتى يسد شراييننا ، نموت كل يومٍ ألف مرة قبل أن نموت !

ردت بلسم و قد هربت الدموع من عينيها :

_ في كل مرةٍ تخذلني مآقي عيني و أبكي .

أسندت لبنى رأسها على كتف بلسم التي تحاول أن تكفكف دموعها و دموع صديقتها .

***

شرع ليث في تنفيذ فكرته بعدما صادق عليها الشبان ، الوقت ضيق و الفرصة لا تعوض ، طلب منهم إحضار طبيبٍ فأحضروا (محمود) شقيق حمزة ، قال حمزة ضاحكاً :

_ هاكَ يا ليث ، هذا أخي الدكتور ، هو جبانٌ لكنه يتحمس عندما يتعلق الأمر بالعلم .

تقدم محمود و سلّم على ليث بحماس و هو يقول :

_ يشرفني العمل معكم يا شباب .

سأل ليث :

_ هل لديك أي معلوماتٍ عن الوحوش النارية ؟

_ حدثني حمزة عن الخطة بالفعل ، لكني أظن أن ما تطلبه صعبٌ جداً ، فالممالك القوية احتكرت هذه المخلوقات و حرّمت دراستها على من لا يخدمها .

_ ماذا لو أعطيناك فرصةً لدراسة أحدها ؟

لمعت عينا محمود و كادت الموافقة أن تتدفق من فمه بدون إذنه ، لكن حمزة الذي كان يقف بجانبه عاقداً ذراعيه نبهه قائلاً :

_ تريّث يا محمود و فكر جيداً ، ما أنتَ مُقبلٌ عليه أخطر مما تتصور .

عبس محمود ، لكنه أطاعه و تمشى في المكان مطرقاً مفكراً وسط نظرات الجميع ، ثم عاد إلى ليث بتلك اللمعة في عينيه و هتف بثقة :

_ أنا معكم .

بعد أيامٍ أخذ الشبان محموداً إلى الكهف حيث وجدوا الوحش الهارب ، توغل محمود مع ليث فيه بينما وقف حمزة ليحرس مدخله ، كان محمود يتكلم بحماسٍ و سرعة :

_ لم أنم البارحة و أنا أقلب في الأبحاث ، أنا أقترب من إيجاد المفتاح لفكرتك ، و أرجو أن ننجح فيها .

_ أرجو ذلك .

أتبع محمود و هو يلوح بأوراقه :

_ و اعلم أنه حتى لو لم تنجح الخطة فإن العلم الذي كتبته هنا لا يقدر بثمن !

_ الحمد لله .

جاءهما صوت حمزة الغليظ من الخارج :

_ لا وقت للثرثرة يا ثرثار !

رد محمود بغيظ :

_ سليطٌ يا حمزة و لا تتغير !

استمر العمل بجدٍ على المشروع الكبير ، استعان الشباب بإعادة التدوير في التحضير للتجربة الأولى على الوحش الذي يخبئونه ، جمعوا الخردة و النفايات من بيوت الحي كلها ، و بينما كان ليث يتفقد الخردة مع محمود قال :

_ حصيلةٌ ممتازة ، ستفي بالغرض .

رد مازن بتقزز و هو يغلق أنفه :

_ ممتازةٌ و مقرفة .

حدجه ليث بعتابٍ و سأل ببراءة :

_ من يحرس الوحش اليوم ؟

_ حمزة .

_ ما رأيك أن تبدل معه يا مازن بما أنكَ تشعر بالغثيان ؟

هتف مازن و خرج بسرعة :

_ أوافق و بشدة !

صعد مازن الجبل ليبدل مع حمزة دوره في حراسة الكهف خشية أن يعثر العدو على الوحش قبل تنفيد الخطة ، سأله حمزة عندما وصل لاهثاً :

_ لماذا جئت ؟!

_ سأبدل معك .

ثم نظر مازن إلى الأحجار التي رتبها حمزة في ساحة شطرنجٍ رسمها على الرمل ، سأل متعجباً :

_ هل تلعب الشطرنج مع نفسك ؟

_ الملل و ما يفعل يا صديقي .

_ إذن تعال لأغلبك .

_ سأتأخر عن الرفاق .

_ دورٌ واحد ، أم أنكَ تخشى مواجهتي ؟

_ سأجعلك تندم على اليوم الذي واجهتني فيه !

و هكذا جلسا يلعبان الشطرنج على الأرض .

الفصل الثامن

_ هذه عاشر مرةٍ أغلبك فيها ، ألن تمل من الخسارة يا رجل ؟!

_ هيا يا حمزة ، هذه المرة سأغلبك .

_ لا لا ، تأخرت كثيراً ، سأذهب .

ترك حمزة مازناً و مضى ، و بينما كان يمشي رأى عربات العدو في طريقها إلى الجبل ، سلّم ساقيه للريح و ركض إلى الرفاق بأقصى سرعة ، فتح الباب عليهم بعنفوان .

_ جنود العدو ، سيكشفون أمر الوحش !!

ارتبك الشباب ، لكن محمود قال بسرعة ناظراً بإسهابٍ في عيني أخيه كأنه يثبت له جدارته :

_ لقد انتهينا ، هيا بسرعة لنركبها قبل أن يصلوا .

استعد حمزة :

_ سنشغلهم بينما تتسللون .

ربت ليث على كتفه و هو يخرج مع محمود :

_ انتبه على نفسك .

صعد حمزة الجبل مع بضعة شبان ، و بدؤوا الاشتباك مع الأعداء معطلين طريقهم ، بينما تسلل محمود و ليث من طريقٍ أخرى و وصلا إلى مازن الذي هتف بسرعةٍ و قلق :

_ لقد رسمتُ علامةً على ذيله ليميزه عميلنا المزدوج ، هيا أسرعا !

أسرع محمود و ليث في تركيب العدسات المقوية للنظر على عيني الوحش ، ثم ربّت ليث على ظهره فانطلق مصدراً صيحةً شغلت الجنود عن حمزة و رفاقه الذين لاذوا بالفرار .

وصل الجميع إلى المخبأ لاهثين مفعمين بالأمل ، سأل مازن :

_ ما الخطوة التالية إن نجحت ؟!

تمتم ليث :

_ إن نجحت فسنزلزل كيانهم !

***

مر أكثر من شهرين و أسامة في العزل الانفرادي يصارع الجنون ، حاله يُرثى لها ، برزت عظامه من الجوع و تشوه جلده من الجراح ، أكلته الهلاوس و خادعه الهذيان ، انتفض فجأةً و صرخ بما تبقى له من قوة :

_ آآآه ، كله بسببك يا حسن ... كله بسببك .

مرت دقائق قبل أن يدخل الضابط برفقة رجلين من الشرطة وقفا لحراسة الباب ، تكلم الضابط مدعياً الألفة و التعاطف :

_ يا ويلي ، ذلك الحقير ضيّع حياتك ، ليته يرى حالك الآن ، هو ينعم بالمجد حراً و أنت تتعذب هنا ... لو تكشف اسمه الكامل لنبدل الأدوار بينكما ... هيا يا صديقي .

ضحك أسامة ضحكةً مجنونة ثم قال :

_ أنت محقٌ يا سيدي ، اقترب لأهمس اسمه في أذنك .

تقدم الضابط و الحارسان ، لكن الشاب هز رأسه قائلاً :

_ آسفٌ لكني لا أثق إلا بك .

جاراه الضابط و هو يظن أنه مجنونٌ يهذي ، لكنه بحاجةٍ لاستخراج المعلومات الثمينة التي سترضي أسياده و لو من هذيان مجنون ! أشار إلى الحارسين ليخرجا ، فظل أسامة مع الضابط في تلك الأمتار القليلة ... لوحدهما !

***

بدأت بلسم تحاول تعليم أختها رهف تهجئة الحروف ، و تلقنها أبجديات الحياة ، أرادت أن تقنعها بأن الحياة ليست عبارةً عن فقدان الحياة ، و أن هناك طعاماً شهياً و شراباً ليس ملوثاً ، و أن هناك مدرسةً و طابوراً في الصباح ، و أن هناك أعياداً و أفراحاً ، لكن رهف كانت تنسى كل ما تعلمته و هي تبكي من أصوات القصف و منظر الأشلاء ، و كانت بلسم تشفق عليها ؛ لأن الأطفال يطلّون على الدنيا من نوافذ مزخرفةٍ مبهجة الألوان ، و يتوقون ليكبروا فينطلقوا ليغامروا فيها ، لكن هؤلاء الأطفال استبقتهم معارك الدنيا و مغامراتها و يتوقون لأن تكون لهم نوافذ مزخرفة ليختبئوا تحتها من القتل و الدمار !

طُرق باب الدار فأسرعت رهف لتفتح ، و عندها صرخت بجذل :

_ خالتي رباب !!

قبلتها خالتها و دخلت لتستقبلها بلسم و أمها ، جلست الخالة المسنة و هي تحدق في بلسم بطريقةٍ مربكة ، و عندما انتهت فقرة تبادل الأخبار و الشكاوى سألت الخالة بلسم :

_ ماذا تنوين أن تفعلي الآن يا بلسم بعد أن توقفت دراستكِ ؟

_ مثلي مثل جميع الطلاب ، سيكون هناك حلٌ لنا بالتأكيد بعد الحرب .

_ يا وجع قلبي ! و هل ستنتهي هذه الحرب ؟

_ إن شاء الله ، الدنيا كلها ستنتهي فكيف لا تنتهي الحرب ؟!

_ لن أنتظرها لتنتهي و سأسافر إلى الخارج .

تفاجأت أم أحمد و سألت :

_ و هل ستدفعين هذا المبلغ الخيالي الذي يدفعونه عند المعبر ؟

ردت بفخر :

_ سيدفعه لي ابني باسم .

ثم نظرت إلى بلسم و أتبعت :

_ أعلم أني فاتحتكم في الأمر من قبل و رفضتم بسرعة لكي تكمل دراستها ، لكن الآن بعد أن توقفت الدراسة هنا ، هل ستوافق الآنسة ؟!

ارتبكت بلسم و لم ترد ، بينما أكملت خالتها :

_ سيكون المهر هو الثمن الذي سيدفعه باسم لإخراجكم جميعاً فهو خياليٌ للفرد كما قلتِ يا أختي ، و سيكون باسم بانتظارنا هناك .

_ انتظري يا أختي ، فنحن لم نوافق بعد .

_ أتساءل ... هل ستحرم بلسم نفسها و أهلها من العيشة الرغيدة في الخارج ؟ ... لا أعتقد ذلك .

_ ...

_ يمكنكِ إكمال تعليمكِ بعد أن نتفق على ذلك طبعاً ، و يمكن للطفلة رهوفة أن تدخل المدرسة ، و سنستأجر شقةً لوالديكِ حتى تستقر الأوضاع ، ما رأيكِ يا بلسم ؟!

_ سأفكر يا خالتي .

خرجت الخالة التي توقعت الموافقة الفورية خائبة ، و تركت بلسم في غمرة أفكارها حائرة ، ليس ذلك هو الرجل الذي كانت تود أن تكمل حياتها معه أبداً ، لكنها ستشعر بأنها أنانيةٌ إن فكرت فقط بنفسها ، و ظروف الحرب دائماً استثنائية ، و هي مغتاظةٌ لأنه ضغط عليها بهذه الظروف ، كانت تود أن يكون شخصاً يفوق أخاها حكمةً و شجاعةً و يفوق أباها حناناً ، أن ينافسها إلى الخير و يثبتها على الحق ، و لا تظن أن قريبها هذا يملك شيئاً من هذا ، قاطع أفكارها صوت والدها و هو يقف بجوار أمها أمامها :

_ اسمعي يا بلسم ، فكري في نفسكِ و عمركِ فقط ، نحن بخيرٍ هنا ، و أجلنا ماضٍ سواءً كنا في الخارج أو هنا ، و الحرب لن تدوم ، لكن الزواج يدوم .

دمعت عيناها و قالت بانفعال :

_ لكن ! ... أضيع عليكم المستقبل ؟!

_ مستقبلنا حيث تكونين سعيدة .

في نفس البيت ... كان عمر يتماثل للشفاء و يتأهب للعودة إلى رفاقه في أقرب وقت ، كم كان ممتناً لأسرة أبي أحمد التي اعتنت به ! و كان يشعر بثقله عليهم و يخجل من عدم قدرته على خدمة نفسه ، و الآن بعد أن تحسنت صحته سيخلصهم من ثقله ... أما هم فللأسف لم يستطيعوا أن يخلصوه من ثقلٍ كتمه في صدره ! ضغط على صدره بقوةٍ و هو يودعهم ... ما خطبك أيها الفؤاد العليل ؟! أمَا تبت عن جراح الشوق ؟! أم هل يشفيك نبض الجراح ؟!

***

اجتمع فريق حسن في أحد أروقة الجامعة بمنأىً عن الأنظار ، و كان حسن يؤكد لهم الخطة بإيجازٍ و هم يستمعون إليها بإنصات ، كانوا خلال الوقت المنقضي يتجهزون لهذه الخطة و يهيئون لها الأوضاع ، استمعوا بإنصاتٍ تخلله التفاتاتٌ للتأكد من عدم مرور أحد .

_ سنتوزع في المدن ، البسوا لُثُماً و علقوا الإعلانات أو اكتبوا على الجدران ، اختاروا أوقاتاً لا يكون في الشارع أحد ، و اسلكوا طرقاً التفافية عند الذهاب و الإياب ... و للمرة المئة أؤكد ! لن نجتمع حتى الشهر القادم و لن نتصل ببعضنا ... مفهوم ؟!

هدر الجمع بصوتٍ واحد :

_ مفهوم !

ثم انفرط عقدهم و تبعثروا ، و عندها وقف حسن يطالع الرقم المتصل على هاتفه بذهول .

_ هذا صهيب !! ... أيعقل أن سليم قد كلّمه ؟!!

كان صهيب يجلس في غرفة مكتبه مع ذراعه الأيمن (ماجد) و يتحدثان أمام صينيةٍ فيها ثلاثة أكوابٍ من الشاي ، كوبان لكلٍ منهما و الثالث للضيف المنتظر ، سأله ماجد محتاراً :

_ لماذا تشك فيه هو بالذات يا سيدي ؟

قال صهيب باستهانة :

_ وصلتني أنباءٌ بأن العقل المدبر لكل هذه الفوضى اسمه حسن ... هذا فقط ما عرفوه ... اسمه الأول !! و ليسوا على يقينٍ من أنه من مملكتنا حتى !

ثم أتبع بغيظ :

_ لكن لو كان حسن هذا من مملكتنا حقاً ، فأراهن أنه هذا الحسن يا ماجد .

_ لكن لمَ لا نترك الأمر للشرطة ؟ الموضوع لا يستدعي تدخلك بنفسك .

_ أريد أن أتسلى به يا ماجد ، يمكنك أن تقول أنها ضغينةٌ قديمة .

طُرق الباب ، فرفع صهيب صوته و قام مرحباً :

_ تفضل يا حسن .

فتح حسن الباب بحذر ، يخشى أنه لن يخرج من هنا أبداً ، فبعدما كلمه صهيب بنفسه لم ترحمه الكوابيس و الاحتمالات السوداء :

_ كيف حالك يا صهيب ؟

كز صهيب على أسنانه عندما سمع اسمه بلا رتبته الفخمة ، لكنه جاهد ليضع قناع الألفة :

_ حسن حسن ، شقيق صديقي سليم ، آه كم اشتقت إلى أيام طفولتنا !

جال حسن بنظره في الغرفة و سأل متوجساً :

_ هل دعوتَ سليم كذلك أم أني الوحيد الذي تشرف بدعوتك ؟

_ اجلس يا رجل ، لماذا أنت قلقٌ هكذا ؟ ... هيا تفضل الشاي .

جلس حسن يتأمل كوب الشاي الموضوع على المنضدة أمامه و يتساءل عن نوع المادة المذابة فيه ، تذكر حديثه مع أخيه و شعر بأنه حقاً غرٌ صغير أمام نظرات صهيب الجافة من الرحمة ، أشفق عليه لوهلة و شعر بأنه نال نصيبه من حرب الذئاب على الورق !

بتر صهيب الصمت بقوله :

_ إذن ... هل سمعت أخبار المظاهرات ؟ أنت في الجامعة ، بالتأكيد رأيتهم يعتصمون و يهتفون .

رمقه حسن بطرف عينيه و قال بهدوء :

_ و هل يعجبك ما يفعلون ؟

ضحك صهيب و رد :

_ لولا أني مشغولٌ لشاركت معهم ، فأنا سعيدٌ لأنه مازال هناك بصيص خيرٍ في الدنيا .

_ فهمت .

سكت حسن يحاول أن يخفي دهشته ، و قرر ألا يبتلع الطعم مهما حدث ، سأله صهيب متعاطفاً :

_ و هل تظن أن بإمكاني المساعدة ؟ سأفعل أي شيءٍ لأساعد .

_ و من أنا حتى أطلب منك ؟

_ ربما تعرف المسؤول عن هذه المظاهرات لأحدثه .

_ للأسف أنا مجرد طالبٍ بسيط .

ضاق صهيب بصموده ، و قرر أن ينهي هذه المسرحية ، و يرمي ورقته الرابحة :

_ يا للخسارة ! كنت سأعرض عليه أن أحرك له فرقتي في الجيش نحو المدينة المحصنة.

ثم نظر إلى حسن الذي يرتشف الشاي و قال بدهاء :

_ لكن هذا سرٌ كما تعلم .

غُصَّ حسن بالشاي و سعل بقوة ، كانت الكلمات التي ستدينه على طرف لسانه لكنه ابتلعها ... هل ينتظر هذا الوضيع أحداً ليطلب منه التحرك ؟!

اعتذر و غادر بسرعة تاركاً صهيب يبتسم بمكر و قد تثبت من شكوكه ... هذا هو الحسن بالتأكيد !

***

_ الاشتباكات تشتد يوماً بعد يوم ... لو أن عمر يعود إلينا .

_ لو ذكرت كنزاً يا مهند !

_ عمر !!

وقف الشبان يرحبون بعودة عمر بعد شفائه ، عزّاه رفاقه في أهله ، و حدثوه عمّن فقدوا في المعارك منهم و عن بطولاتهم ، قال أحدهم بينما يتحدث عن أهله :

_ إنهم يقترفون العجائب في أهلنا ، لا أعرف كيف يترك العالم سكارى مثلهم طلقاء يفعلون ما يشاؤون .

ابتسم عمر هازئاً و رد :

_ صرت أشعر أن العالم كله سكارى !

بعد أيامٍ كان عمر مبتهجاً يقف مع مهند أمام الهاتف ، سأله مهند :

_ ماذا ستخبرهم ؟ أنت لست متأكداً حتى إن كان مايزال على قيد الحياة .

_ الشاب الذي أخبرني بأنه رآه قال بأنه كان مصاباً و حوله أهالي من المدينة الخضراء ... لربما ساعدوه و نجا .

_ لكن ألم يتضرر هاتف بيتك في القصف ؟

_ الهاتف في غرفتي فلم يتضرر .

ضحك مهند و قال :

_ يا ابن المحظوظة !

عبس عمر و قال بأسى :

_ توفيت المحظوظة ، و أدعو الله أن يكون حظها في الآخرة أكبر من الدنيا فقد تعبت كثيراً .

أطرق مهند يتذكر أطفاله الذين لم يتمكن من إخراجهم من تحت الأنقاض و قال :

_ هي محظوظةٌ بالفعل لأنها وجدت من يدفنها ، هناك كثيرون تحللوا في الشوارع و تحت الأنقاض أو سرق العدو جثثهم ... صار أكبر أحلامي أن أموت ميتة سوية !

_ أنا على عكسك تماماً ، أود لو أُقطّع تقطيعاً !

نظر إليه مهند بذهول و سأل متعجباً :

_ و لمَ ؟!

_ لكي يرى ربي أني مستعدٌ أن أقطّع فيه قطعةً قطعة !

_ ابحث عمن يلملم قطعك حينها ، أقول لك أني رفعت يدي من الموضوع منذ الآن .

_ لم يخطئ أحمد عندما سمّاك نكتة ، كيف تضحك في أصعب المواقف يا رجل ؟

_ غداً أستشهد و تتذكرني عندما تضحك .

تنهد عمر و رد بخشوع :

_ تُرى متى يأتي دورنا في الشهادة ؟ ... كلما أراهم يرحلون أغار و أقول يا رب و أنا ؟ متى أستحقها ؟! متى يأتي دوري في الاصطفاء ؟

***

أبلغهم العميل المزدوج بأن الخطة نجحت ، و أن أحد الوحوش يأبى إطلاق النار أو قصف البيوت مهما حاولوا معه ، و كان على الشبان أن يتحركوا في أسرع وقتٍ قبل أن تُكتشف فعلتهم ، لم تكفِ الخردة التي جمعوها للخطوة التالية ، فجاد كلٌ منهم بما يقدر على إعطائه من أموال ، حتى حمزة _ أفقرهم _ شارك في الدفع لتكاليف الخطة ، علّق عليه مازن مازحاً :

_ مسكينةٌ أم حمزة ، لم تفرح بأيٍ منكما ، واحدٌ غارقٌ في الاشتباكات و الآخر غارقٌ في المكتبات ... كم أشفق عليها !

نظر إليه حمزة شزراً قبل أن يرد ليث :

_ لدينا هنا نكتة فرع المدينة الخضراء ! أنت تنافس نكتة فرع مدينتنا .

ضحك مازن و رد بفخر :

_ و أنا متأكدٌ أنني أتفوق عليه .

كان محمود عندها يتأمل أخاه بتحسرٍ و ندم ، و عندما التقت عيناه بعينيه ، أحنى محمود نظره بتأسفٍ بينما ظل حمزة يرمقه بجمود ، فحمزة عندما تخرج من الثانوية رفض إكمال دراسته طوعاً لكي يعمل و يعين الأسرة ، و عندما تخرج محمود بعده بمعدلٍ ممتازٍ أصر على تحقيق حلمه و دراسة الطب !! راكضاً خلف المنح و الكفالات ، لكن الكلية كانت مع ذلك تستنزف الأسرة الفقيرة و تزيد قهر حمزة الذي كان _ رغم حبه لأخيه _ يشعر بأنه ضحى كثيراً على حساب نفسه ، ضحى بغير حساب .

و بالرغم من الاعتقالات و المداهمات التي كانت تسرق من محمود فصولاً دراسية بين الفينة و الأخرى بسبب أعمال حمزة الجهادية ، إلا أن هذا لم يخفف من وطأة القهر الذي يشعر به حمزة ، القهر الذي عشعش في قلبه على غفلةٍ منه ، لينعكس على تعامله مع أخيه الذي كان يتوق إلى مصادقته .

***

_ اقترب يا سيدي ، هل أنت خائفٌ من صديقك ؟!

اقترب الضابط من كومة العظام الملقاة على الأرض تحمل اسم أسامة ، كان متوتراً يبتلع ريقه بصعوبة .

_ ها أنا قد اقتربت ، هيا تكلم .

تكلم أسامة بعيونٍ زائغةٍ و صوتٍ يشبه الفحيح :

_ قرب أذنك لأهمس فيها .

اقترب الضابط أكثر ، و عندها عصر أسامة وجهه ضاغطاً عليه بيدٍ و ضربه باليد الأخرى ضربةً كسرت أسنانه :

_ سأخبرك باسمه ... اسمه ملك الموت .

و توالت اللكمات على وجه الضابط المثبت على الحائط ، عض الضابط على يد الأسير التي لم تبرح وجهه و صرخ ليسمعه الحارسان ، و عندما فتحا الباب و شاهدا المنظر كادا ينقضان على أسامة ، لكنه استل نصلاً كان يجهزه منذ زمنٍ بما توافر له من أغراض ، نصلاً بسيطاً ، إلا أنه من موضعه هذا مفيدٌ جداً ، حيث ثبته على رقبة الضابط صارخاً فيهما بقوة :

_ إن اقتربتما سأقتله !!

نظرا إلى سيدهما محتارين ، فوجدا في عينيه توسلاً و استجداءً فابتعدا ... هذا الضابط الحقير ليست لديه الشجاعة لمواجهة الموت ، كيف و هو غارقٌ في المظالم إلى أخمص قدميه ؟! غريبةٌ هي الدنيا ، أناسٌ باعوها و طلبوا الموت مشتاقين ، و آخرون تمسكوا بها و هربوا من الموت في طريق الموت مذعورين ! و الموت لا يفرق بينهم و سيجدهم كلهم ؛ لأن العبرة فيما بعد الموت .

كان محجرا أسامة يتقدان كأسدٍ جائع ، عظامه الناتئة تضرب كالمطارق ، صرخ للحارسين :

_ أديرا كاميرات المراقبة التي عند الباب و انزعا ملابس الشرطة و اتركاها خارجاً ثم ادخلا ، إن تأخرتما سأقتله !!

نظرا بغيظٍ إلى الضابط الذي مازال يتوسل إليهما أن يفعلا بعينيه ، أتبع أسامة زائراً و هو يحز النصل في رقبة غريمه :

_ بسرعة !!

أسرعا ينفدان ما أمر ، و عندما دخلا العزل خرج ببطءٍ مع الضابط المرتجف خوفاً و أغلق عليهما ، و عندها ضرب أسامة رأس الضابط بكوعه فخرّ مغشياً عليه ، ثم لبس ملابس أحد الشرطيين و غطى رأسه بقبعته ، صعد من القبر الذي كان فيه و أغمض عينيه عندما ناغى النور وجهه ، تسارعت خطواته إلى باب المقر و تسارعت معها أنفاسه ، يا رياح الحرية هبي و أثلجي صدري و أنعشي قلبي !

لكن صوتاً أخرجه من سكرته و هو ينادي عليه من خلفه :

_ أسامة !!

الفصل التاسع

_ غريب ، لماذا طلبك ؟

_ أنا آسفٌ يا أخي ، اتضح أنه من عبدة الملك كما قلت .

أمّن سليم على كلام حسن الذي باغته بسرعةٍ معاتباً :

_ مع ذلك ، أظن أن بيدك أن تشتري الجنود بالمال الذي اشترى أسياده ، المال يعمل في أي اتجاهٍ كما تعلم .

رد سليم بجمود :

_ أنا أرسل إلى المدينة المال بالمساعدات ، و اليد العليا خيرٌ من السفلى .

رد حسن هازئاً :

_ عندما ترسل إليهم المساعدات فلا تتفضل عليهم ؛ لأنك ترسلها من أجلك و ليس من أجلهم ، فيدك العليا هذه تطعم يداً تُذبح بدلاً من أن تنقذها ، أنت تسكّن ضميرك ليس إلا .

عقد سليم حاجبيه و قال متجاهلاً مغيراً دفة الحديث :

_ يبدو أن العيون عليك ، كن حذراً هذه الفترة .

_ أعرف ذلك .

رن هاتف حسن ، أجاب ليجد زميله يشكو إليه :

_ حسن ، ماذا سنفعل ؟! بلال كُسرت قدمه اليوم و لن يستطيع أداء مهمته .

نظر حسن إلى سليم محتاراً و سأل سؤالاً يعرف إجابته :

_ أليس هناك بديل ؟

_ لا أظن .

رد وسط نظرات التحذير من أخيه :

_ حسناً إذن سأنوب عنه .

أغلق المكالمة و قال لسليم :

_ آسفٌ يا أخي ... حالةٌ طارئة !

هدر سليم في وجهه :

_ يا أخي أرحْ رأسي و رأسك و دع الأمور تمضي على خير ، كل الناس تسمع الأخبار مثلك و تتغافل و تكمل حياتها ، كفّ عن الصراخ لوحدك !!

_ حتى لو كان كل الناس يتغافلون و يتخاذلون ، أنا لن أحاسب على تقصيرهم ، لكني سأحاسب على تقصيري ، و لو سكتوا كلهم سأقوم و أصرخ لوحدي لأني سأحاسب لوحدي !

_ ...

نظر حسن شزراً إلى أخيه و قال و هو يغادر :

_ و كل من بيده فعل شيءٍ و لم يفعل سيحاسب .

كانت ليلةً كالحة السواد حيث غاب القمر ليغطي على حركة الأبطال ، خرج حسن في ساعةٍ متأخرةٍ حيث سمع طرق نعليه من خلو الشارع فاطمأن ، لبس لثاماً و بدأ يرش على الجدار بخطٍ عريض :

" شهر الإضراب الشامل

لن نعمل حتى تتحرك الجيوش

المدينة المحصنة تحترق "

غطى عبوة الرشاش و هم بالرحيل قبل أن يسمع تصفيقاً و ضحكةً شريرةً شقت الظلام و أقلقت النيام !!

***

تجمدت أوصاله عندما نودي باسمه ، بدا الوقت الذي مر حتى وصل المنادي إليه كالأبد ! استدار ليواجهه ناكساً رأسه لا يكاد يظهر وجهه ، توقع الأسوأ و تأهب له ، لكن النبرة الاعتيادية التي وصلته من الشرطي الذي نادى عليه أذنت لكل خليةٍ في جسده أن تتنفس الصعداء و ترتخي :

_ هاكَ القهوة يا صديقي .

سحب القهوة بهدوءٍ و أكمل طريقه دون أن يرد أو يرفع رأسه ، بينما ظل الشرطي واقفاً يسأل نفسه : لماذا هو غاضبٌ و شاحبٌ إلى هذا الحد ؟ أكلُ هذا لأني تأخرت عليه في إعداد القهوة ؟!

عرض أسامة بطاقته لحارس المبنى و مضى بسرعة ، لم يصدق كيف جرت كل الأحداث في مصلحته ، حث الخطى يلتف من أي طريقٍ ليبتعد عن سجنه ، و عندما تيقن بأنه بعيدٌ كفاية وقف يطالع بطاقة الشرطي الذي أخذ ملابسه بذهول ، كان ذلك الشرطي يحمل نفس اسمه ! الصدفة التي كادت تسقط قلبه بين قدميه و تقضي عليه ، فكر في صديقٍ يلجأ إليه و أكمل طريقه .

كان أسامة اجتماعياً محاطاً على الدوام بالزملاء و الأصدقاء ، لكنه عندما احتاج إلى صديقٍ حقيقيٍ لم يخطر بباله سوى (ماهر) ، وقف عند بيته و رمى حصاةً لتضرب نافذته :

_ بِس ... ماهر ... هل تسمعني ؟

فتح ماهر النافذة و هو يفرك عينيه :

_ من هذا ؟!

_ إلى الأسفل أنا هنا .

هتف بصوتٍ عالٍ قبل أن يشير له أسامة بسبابته ليخفض صوته :

_ يا ويلي هل أنت أسامة ؟!!

ابتسم أسامة و رد :

_ أظن ذلك !

وقف ماهر للحظاتٍ يتأمل صديقه الذي تغيرت ملامحه و نحت العذاب فيها ، حتى قاطعه صوت أسامة متجهماً :

_ هل ستدخلني أم أبحث عن غيرك ؟

_ دقيقة .

نزل ماهر بسرعةٍ و فتح الباب بروية ؛ لكيلا يوقظ أهله في منتصف الليل ، و عندما عانق أسامة زكمت أنفه رائحةٌ نتنة ، أغلق أنفه و قال :

_ إلى الاستحمام ... تحتاج إليه .

تذمر أسامة :

_ أكاد أموت من الجوع !

_ استحم بينما أعد لك طعاماً .

استحم أسامة و بدّل ملابسه بملابسَ من صديقه ، ثم جلس يأكل بنهمٍ و ماهر يتأمله مشفقاً .

_ ما الذي حدث يا رجل ؟! ... أين اختفيت ؟!

_ و هل هذا سؤال ؟ ... هل حقاً صدقتم أني متُّ ؟

_ أنا لم أصدق .

_ إذن هناك من صدقوا ؟!!

_ نعم ، و أولهم نائبتك الرائعة التي أوقفت عمل الفريق .

وقف الطعام في حلق أسامة و هو يصرخ :

_ أوقفت ماذا ؟!!!

رد ماهر مغتاظاً بينما كان أسامة يضرب على صدره :

_ كما سمعت ... أوقفت كل أعمالنا ماعدا جمع التبرعات ، و نشك في أنها تسرقها ؛ لأن الفريق الذي نتواصل معه في المدينة المحصنة يقول بأنه لا يصله سوى ربع المبلغ الذي نبلغهم به ... الباقي في جيبها على الأكيد .

صُعق أسامة بما سمعه عن زميلته مروة ، تمتم ساخراً من نفسه : قال العروس المنشودة قال !

ثم سأل بلهفة :

_ كيف أهلي ؟!

_ نبشوا المملكة كلها و حاولوا رشوة الشرطة ليجدوك بلا فائدة ، اختفيت كأنك لم تكن !

ثم نظر ماهر في عيني زميله الحيران و قال بأسى :

_ أظن أنك لن تعود إلى البيت أبداً .

هز أسامة رأسه متحسراً و رد :

_ لا أعرف ماذا سأفعل لذلك لجأت إليك .

التمعت عينا ماهر و رد :

_ أنا ممتنٌ لأنك قصدتني .

حاول أسامة ألا يتأثر :

_ أردها لك في وقتٍ لاحق .

ضرب ماهر كفيه بحماسٍ و سأل :

_ إذن ... هل أبلغ الفريق بعودتك لنكمل العمل ؟

ضحك أسامة و رد بتشفٍ :

_ هل أنت مجنون يا ماهر ؟! أنا تبت من هذه الأعمال ، قدّمت ما علي و زيادة ، دور غيري ليقدم .

تمتم ماهر بصوتٍ مسموع :

_ لو أن أهل المدينة المحصنة استسلموا لأنه " دور غيرهم ليقدم " لضعنا منذ زمن .

رمقه أسامة بغيظ و رد متجاهلاً :

_ أين تريدني أن أنام ؟

_ دقيقة و سأحضر لك الفراش ، لكني أتحرق شوقاً لأعرف كيف هربت .

سمع صوت شخيرٍ عميقٍ فالتف ليجد أسامة نائماً على سريره ، تنهد و مضى ليحضر الفراش لنفسه .

***

_ صدقني ... هذه آخر مرةٍ أحاول فيها الاتصال .

تنهد مهند و ناوله السماعة :

_ طيب ، خذ !

أمسك عمر السماعة مترقباً بقلق ، حتى جاءه الصوت من الجهة الأخرى :

_ ألو ؟

_ من معي ؟

_ أنا بلسم .

كان صوت بلسم ضعيفاً منهكاً ، رد بقلق :

_ أين والدكِ عنكم ؟! هل أنتم بخير ؟!

وصله صوت نحيبها فسأل بانفعال :

_ هل استشهد ؟!

_ نعم ، لملمت أشلاءه قطعةً قطعة ، حتى الشيخ الكبير الذي لا يؤذي نملة لم يرحموه !

عض على شفته و هو يتخيلها تلملم أشلاء والدها قطعةً قطعة ، ثم تذكر نفسه فضاق صدره و أوجعه قلبه ، سأل نفسه مفكراً : هل يتلخص الحب في زمن الحرب في أن تكون واثقاً من أن أحدهم لن يرتاح له بال حتى يلملم أشلاءك قطعةً قطعة و يواريها الثرى ؟! شخصاً تصطبغ ملابسه بدمائك فتغسلها دموعه الحرّى لحزنه عليك ... أَكلُ هذا لأنك لم تستطع أن تغسل قلبك من حب أبله اصطبغ به يا عمر ؟! أَكل هذا

لأنك تمسكت بقصةٍ مضمّخةٍ بالأحزان مختومةٍ بالألم ، قصةٍ قد تنتهي قبل بدئها أصلاً ... هذا عذابٌ و الله ، فليعتقها إذن من هذا العذاب !

قاطع أفكاره صوتها :

_ ألو ؟

_ كيف حالكم الآن ؟

_ يبدو أني سأقبل بعرض خالتي و نسافر ، لا أحد سيحمل الأسرة بعد رحيل أخي و والدي .

_ سهّل الله طريقكم .

أنهى عمر الاتصال مغموماً ، و سلّم السماعة لمهند الذي باغته بالسؤال :

_ لمَ لم تخطبها و أنت بينهم ؟

وجم عمر و سأل :

_ كيف عرفت ؟

ضحك مهند و رد :

_ مشاعرك مخطوطةٌ على صفحة وجهك يا رجل ، لكن حقاً لمَ لم تفعل ؟

ضحك عمر بعصبيةٍ و رد :

_ و أعلقها بمقاتل يقبض بروحه على كفه ؟! كنت أحاول بجد أن أحمي روحي من الأعداء ، لكني لم أحسب حساباً إلى أنها ستنسل من بين أصابعي و ترنو إليها ! صار علي أن أشدد قبضتي لكي أحمي من أحب من هذا الحب !

_ لكنك ستحرمها من شخصٍ يحبها حق المحبة ... و لمَ لم تخبرها عن أحمد .

_ لكيلا يتعلقوا برجوعه و يرفضوا السفر ، أنا لست متأكداً إن كان مايزال حياً كما قلت ، و متى سيرجع ؟!

_ هل تضحي إذن ؟

_ إن كنت أحبهم سأختار مصلحتهم .

ثم تنهد و أتبع :

_ أشعر بأن الحب في زمن الحرب جريمة حربٍ ارتكبتها في حق نفسك و حق من تحب ؛ لأن كل الذكريات الجميلة التي عشناها مع من نحب استحالت جراحاً ننكؤها إن تذكرناها فيتجدد النزيف .

_ معك حق ، فعندما أتذكر الذين فقدتهم أبكي على ذكريات كنت أفرح بها من قبل .

ضحك عمر و سأل :

_ نكتةٌ و تبكي ؟!!

_ لست وحدك من تجمع التناقضات ، مقاتلٌ شجاعٌ و شاعرٌ مرهف !

***

صفّق صهيب بقوةٍ و هو يقف بين رجاله الذين حوّطوا حسن .

_ خطك رديءٌ يا فتى ، كان عليك أن تحسّنه قبل أن تكتب .

كز حسن على أسنانه بغيظ :

_ صهيب !!

_ ظننتك أذكى من أن تخرج بعد أن عرفت أن العيون عليك يا نجم .

رد حسن مراوغاً :

_ إذن ... هل استطعت أن تقرأ ما كتبتُ أم أنكَ لا تجيد القراءة ؟

_ للأسف ، هل سمعت من قبل عن أميٍّ برتبة فريق ؟!

ضحك حسن و رد :

_ أراهنك إن كان الملك بنفسه يحفظ جدول الضرب !

_ قد أخسر الرهان ، لكن أنت ستخسر حياتك ... أبيْت إلا أن تتعبني ، ها قد جئتُ بنفسي لأعتقلك .

تفل حسن على الأرض و قال :

_ يا له من شرف !

فانقض الرجال عليه و نكلوا به .

بعد أيامٍ زار سليم صهيباً في مكتبه ، كان شاحباً شديد القلق و الخوف يشع من عينيه ، رحب به صهيب :

_ أهلاً أهلاً بصديقي القديم ، مالي أراك مهموماً ؟

_ حسن ... لا أثر له في المملكة .

_ غريب ... زارنا قبل أيام ، أليس كذلك يا ماجد ؟

نظر ماجد إلى سليم بإشفاق ، سأل سليم منهاراً على الأرض :

_ هل يمكنك أن تساعدني في البحث عنه ؟

ربّت صهيب على كتفه و رد :

_ طبعاً ، أي خدمةٍ لصديق الطفولة .

عندها ، تم استدعاء صهيب فخرج من المكتب ، تكلم ماجد متحيناً الفرصة :

_ أخوك مسجونٌ في المركز .

_ أعرف ، هل تستطيع إخراجه ؟

_ لا أظن ، لكن اسمع ! ... أخوك يطالب بتحريك الجيش ، يمكنني أن أحرك له فرقة .

_ و ما شرطك ؟!

_ المال طبعاً ، أنت ثريٌ جداً ، و نحن نريد مقابل هذا تأمين مستقبل أسرنا ، غير أنه عليك أن ترسل جميع الأسر للخارج إن استدعى الأمر ؛ للحفاظ على حياتهم إن تم تهديدهم ، ربما يكلفك هذا كل أموالك ، هذا رقمي ، اتصل بي إن أردت .

رجع صهيب و سأل متوجساً :

_ هل هناك خطبٌ ما يا ماجد ؟!

ابتسم ماجد و رد :

_ طبعاً لا يا سيدي ، سررت بالتعرف على صديقك .

أثناء التحقيق ، كان حسن جالساً مقيداً أمام صهيب الذي تعجب الجميع من إصراره على التدخل في هذه القضية بالذات ، قال له صهيب :

_ أخوك المسكين يبحث عنك ، لكنك ستخسر حياتك كما وعدتك ، فقد أمر الملك بإعدامك وسط المملكة إن بدأ الإضراب .

_ ممتاز ! ... ستزيدون غضب الشعب ، و سأخلّد أنا كبطلٍ بينما تُرمى أنت و أمثالك في مزابل التاريخ .

لطمه صهيب و صرخ :

_ حقير !!

_ ما بالك خفت ؟! من لم يخف من مساءلة الله لا تخيفه مساءلة التاريخ ، أليس كذلك ؟!

_ خذوا هذا الحقير إلى السجن !

حمله الرجال و رموه في العربة التي توجهت إلى السجن ، أدخلوه غرفةً كبيرةً فيها عددٌ من المساجين ، جلس متكوماً على نفسه و غط في نومٍ لذيذ .

***

_ علي المغادرة ، لقد أثقلت عليك بما يكفي .

فرك ماهر عينيه محاولاً أن يستوعب ما سمعه و رد بصوتٍ ناعس :

_ الساعة الثالثة ، إلى أين ستذهب ؟

_ لا تقلق عليّ ، سأذهب إلى قريةٍ بعيدة و أختبئ فيها ، لربما أغير اسمي كذلك

_ و لمَ لا تبقى عندي ؟

_ لأن بقائي خطر عليكم و عليّ .

أراد ماهر أن يتكلم ، لكن أسامة أشار له و قال :

_ لا تحاول إقناعي ، سأغادر .

هز ماهر رأسه متفهماً ثم قال بإصرار :

_ إذن انتظر لحظة !

نزل بسرعةٍ إلى المطبخ و أفرغ في حقيبةٍ كل ما يمكن حمله من طعامٍ و شراب ، ثم عاد و ناولها لصديقه :

_ خذ هذا ، أرجو أن يكفيك .

عانقه أسامة ممتناً ثم حمل الحقيبة و خرج بهدوء ، و لم يعلم أهل البيت بالضيف الخفي الذي مكث عندهم و مضى ، لكن أم ماهر تفاجأت في صباح اليوم التالي من خلو الثلاجة ، فاستيقظ ماهر على زمجرة أمه و هي تسأله :

_ ماهر !! هل تعرف أين الطعام الذي كان في الثلاجة .

رفع يديه باستسلامٍ و قال متأهباً لموجة التوبيخ :

_ جوع آخر الليل !

مشى أسامة إلى قريةٍ بعيدة ، كان يبيت في العراء و يقتات مما معه ، ينام كل ليلةٍ متمنياً ألا يستيقظ ، يئس من كل شيءٍ و أحبط ، كان يمر بكابوسٍ مزعجٍ عندما أيقظه نخزٌ على كتفه ، فتح عينيه ليجد بنتاً تنظر إليه بفضول .

_ لم أركَ من قبل ، ماذا تفعل في أرضنا ؟

جلس و قال بخجل :

_ أعتذر عن التطفل ، أنا عابر سبيل ، هل أجد عندكم ماءً يا خالة ؟! فقد فرغت قارورتي .

ردت بانفعال :

_ خالة ؟!!! أنا في الثانية عشرة من عمري فقط .

رد متعجباً :

_ يبدو أن ملابس الفلاحين ظلمت سنك .

عقدت ذراعيها و قالت :

_ و ما بها ملابس الفلاحين ؟!

نادت عليها أمها :

_ منة !! تعالي و ساعديني ، مع من تتكلمين ؟

_ هذا لصٌ يا أمي .

فزع أسامة :

_ لص ؟! ... أنا لم أسرق شيئاً .

أخرجت لسانها و ردت :

_ قل عني خالةً مرةً أخرى .

اقتربت الأم و سألته :

_ من أنت ؟! و ماذا تفعل في أرضنا ؟!

قام و حمل حقيبته قائلاً :

_ أنا مجرد عابر سبيل ، و أعتذر عن التطفل .

_ و ما اسمك ؟!

_ أسا ... أقصد أسعد .

نظرت الأم إليه فرقّت لحاله ، و سألته :

_ هل تحتاج شيئاً يا أسعد ؟

_ الحقيقة أنني بعيدٌ عن أهلي و انقطع اتصالي بهم .

_ ما رأيك أن آخذك إلى زوجي لتحكي له قصتك فربما يساعدك .

ارتبك أسامة لكنه وافق و مشى معهما .

_ حالك يوحي بأنك بائسٌ جداً ، ما الذي مررت به لتصل إلى هذا الحال ؟!

_ الحقيقة يا عمي أني مقطوعٌ عن أهلي و لم أعد أملك المال لأكمل دراستي ، و انتهى بي الحال كما ترى .

ابتسم الرجل و قال :

_ لكن الله يحبك ، فقد كنتُ أبحث عن عاملٍ يساعدني في الحقل ، فما رأيك أن تعمل معي مقابل المأوى و المأكل ؟

_ هذا كرمٌ كبيرٌ يا عمي ، لكني لا أتقن الفلاحة .

تنهد الرجل و قال :

_ سأعلمك ، لم أرزق بولدٍ أورثه المهنة ؛ لذلك سأكون سعيداً بتعليمك .

_ و أنا أسعد .

ضحك الجميع عليه بينما هو حائرٌ لا يدري لماذا ضحكوا ، نسي الاسم الذي أطلقه على نفسه للتو ، السجن أثر على عقله .

بدأ أسامة بالعمل في الحقل و رعي الأغنام ، كان يتأمل السماء الصافية بينما يستلقي على العشب الناعم و الأغنام حوله ، المناظر بديعة الجمال ، لكنه بدأ يشعر بالملل ، تذمر قائلاً :

_ اشتقت إلى هاتفي .

_ لطالما أردت أن أحصل على واحد ، هلّا حدثتني عنه ؟

كانت منة قد أحضرت الطعام له .

_ آسفٌ يا خالة ، سيصعب علي الشرح لك .

زفرت بحنقٍ و حملت سلة الطعام و مضت بعصبية .

_ ابحث عمن يحضر لك طعامك .

تبعها ببطنٍ تقرقر .

_ انتظري سأحدثك ، لكن عودي بالطعام .

عادت و ناولته السلة ، جلس يأكل و يقول :

_ أمكِ طاهيةٌ ماهرة ، لم أتذوق ألذ من طعامها

ردت بفخر :

_ هذا طهيي أنا .

_ رائع ! يوجد للخالة فائدة .

_ و لا يوجد للص فائدة ، هيا حدثني عن الهاتف .

شرح لها و هي منصتةٌ إليه بذهول ، خطر على باله سؤالٌ عندما رأى اتساع عينيها فسأل :

_ هل تعرفون شيئاً عن أخبار المدينة المحصنة ؟

_ اممم ... أنا لا أسمع الأخبار ، فقط والدي من يستمع إلى الراديو في الصباح ، اسأله إن أردت .

_ أنتم تعيشون في جنة ، الجهل مريح !

_ بل أنتم الذين تعيشون في جنة ، هذا الهاتف مذهل !

ثم تذكرت فقالت :

_ انتظر لحظة ! ... تذكرتها ، تشاجر والداي يوماً لأن والدي أراد التبرع من أجلها و والدتي قالت أن الدخل بالكاد يكفينا .

ضحك أسامة و استلقى على العشب .

_ كما قلت ، حياة البسطاء جنة !

زمت شفتيها و صدحت بغضب :

_ كيف تقول هذا ؟!! ... أنا حتى لا أعرف الكتابة .

خطرت في باله فكرة فقال :

_ هل أعلمك ؟!

_ حقاً ؟!

_ تزيدين حصتي من الطعام .

ردت بجذل :

_ موافقة .

الفصل العاشر

_ ما اسمك ؟

كرر كلامه .

_ أنت ! ألا تسمعني ؟ ... سألتك عن اسمك .

ثم رفع صوته أمام تجاهل حسن له .

_ ما اسمك يا هذا ؟!!

رد حسن غاضباً :

_ و هل ترى هذا نادي تعارف ؟! ... ابتعد عني .

_ تمام ، إن لم تخبرني باسمك فسأناديك (يا حمار) .

_ جرب و سأريك نجوم النهار !

_ طيب ، يا حما..

بترت كلمته لكمة حسن على وجهه ، فرد له الضربة .

_ إلا الوجه يا عزيزي .

و اشتعل الشجار ، و باقي المساجين يهتفون باستمتاع ، حتى سقط كلاهما على الأرض لاهثين .

_ أنت لستَ سيئاً .

_ و أنت تملك لكمةً قوية .

اقترب حسن و سلّم عليه .

_ أنا حسن .

_ و أنا إسماعيل ... تشرفت بك .

انتبها إلى العيون التي تحدق بهما فصرخا بصوتٍ واحد :

_ إلامَ تنظرون ؟!

_ سأقلع عيونكم إن استمررتم بالتحديق .

ابتعد الرجال عنهما ، فبدأا بالحديث .

_ منذ متى و أنت هنا ؟!

_ أكثر من أسبوع .

_ و كيف هو العالم في الخارج ؟

_ لماذا تسأل ؟ منذ متى و أنت هنا ؟

_ سأكمل عامين .

تفاجأ حسن و سأل :

_ بتهمة ؟

_ اختلاف رأيٍ مع الملك .

تنهد حسن و رد بأسى :

_ نفس الشيء هنا .

_ و من أي كليةٍ أنت ؟

_ من كلية الإعلام .

_ أنا من كلية الصيدلة ، إن ناديتني يا دكتور سأكون ممتناً .

_ حسناً يا دكتور .

دمعت عينا اسماعيل و رد بحزن :

_ ضاعت عليّ ، حتى أهلي لا يعرفون أين أنا .

حاول حسن تغيير دفة الحديث :

_ أي فريق كرةٍ تشجع ؟

***

كانت منة تراجع الدرس في المطبخ .

_ ألف باء تاء ..

وصلها صوت أمها :

_ منة !! ركزي في عملكِ لكيلا تنسي الملح مثل آخر مرة .

_ حاضرة يا أمي .

_ و الآن خذي الطعام لأسعد ، هو يرعى الأغنام في التل .

_ حسناً .

حملت السلة و جرت بسرعة ، ثم تذكرت فرجعت و حملت دفاترها ، تبعها باقي الأطفال و مضوا معاً إلى التل .

_ نحن جاهزون يا معلم .

_ أهلاً أهلاً .

صار أسعد ينادى بالمعلم أينما ذهب في القرية ، بدأ الأمر بتعليم منة ، ثم ازداد عدد الطلاب تدريجياً حتى غطى جميع أطفال القرية المتواضعة ، حيث اكتشف أنه شغوفٌ جداً بمهنة التعليم ، و صار يشعر بأن حبسه و هروبه قد نوّر حياته بهذا الاكتشاف ، بعد أن كان يشعر أنها تدمرت بالكامل .

قطع الدرس أحد الطلاب :

_ علي الذهاب يا معلمي ، لدينا الكثير من العمل في الحقل .

رد أسعد متعجباً :

_ لماذا تعملون أكثر هذه الأيام ؟

_ لأن والدي سيشارك في الإضراب الشامل ، و نحتاج إلى تأمين حاجاتنا قبل أن يبدأ الشهر الجديد .

رد بذهول :

_ الإضراب الشامل ؟!!!

تكلم طالبٌ آخر :

_ نعم ، ألم تسمع به ؟ ... مملكتنا واحدةٌ من خمس ممالك مشاركة .

هتف آخر :

_ بل ست ممالك يا معلمي .

اندهش أسعد / أسامة كثيراً و غمرته السعادة ، قصد ماهر في الليل متخفياً .

_ بس ... ماهر .

_ أسامة ! ... هل تعشق إيقاظي من النوم ؟!

_ لم أسمع بهذا الاسم منذ زمن ... ما قصة الإضراب الشامل ؟

غمز له ماهر و رد :

_ نمشي على خطا شخصٍ ما .

ضحك و سأل :

_ و ماذا فعلتم مع مروة ؟

_ هددتنا بأن تشي بنا كما فعلت معك ، فهددناها بأن نفضح سرقتها للمساعدات بعد أن جمعنا الأدلة و الشهود ، و هكذا طردناها و أكملنا العمل .

دمدم أسامة :

_ لا أصدق أني كنتُ أعمىً لهذه الدرجة .

_ ماذا قلت ؟!

مشى و قال :

_ ذكرني بأن أسجل في كلية التربية عندما أعود للجامعة .

نادى عليه :

_ لكنكَ في السنة الأخيرة في كلية الإعلام .

لوّح بكفه مودعاً و مشى .

***

اجتمع شباب المدينة الخضراء ليتأهبوا للعملية التي أسموها : عملية الإبصار الرحيم !

هذه العملية التي يأملون بأن تشل حركة العدو لمدة ، متأملين في أحرارٍ يستثمرون خطتهم و ينتهزون فعلتهم ، فقد كانت أخبار الإضراب و المظاهرات التي تصلهم تبشر بأولئك الأحرار الذين طال غيابهم .

في ساعات الليل المظلم ، ليلة آخر يومٍ من الشهر الذي يسبق شهر الإضراب الشامل ، انطلق الأبطال إلى سجن الوحوش ، اشتبك حمزة و مازن و آخرون مع الجنود و أطلقوا على كاميرات المراقبة ، مُؤمِّنين الطريق لليث و محمود و من معهم ممن وكّلوا بتركيب العدسات المقوية للنظر لجميع الوحوش ، و التي ركبوها بحيث لا يمكن إزالتها أبداً ... فحُقَّ لتلك العيون البريئة أن ترى مثيلاتها التي تُقتل من العيون ، حُقّ للعيون الوديعة أن ترحم ؛ لتذكر الوحوشُ الوحوشَ كيف تستعيد الإنسان فيها ! حُقّ لها أن تتخذ موقفاً مما تبصره ، فقد عميت قلوب عيونٍ مبصرةٍ مفتوحة الجفون .

قتل الشبان جميع الجنود و أنجزوا مهمتهم ، هربوا إلى المخبأ المحدد مسبقاً قبل أن تصل الإمدادات إلى المكان ، لكن حمزة و مازن تأخرا و طال غيابهما ، همّ محمود بالخروج للبحث عنهما قبل أن يدخل مازن حاملاً حمزة الذي يحتضر .

مزق محمود قميص حمزة و حاول أن يسعفه ، نظر في جراحه محتاراً زائغ العينين ، أيقظه من غيابه صوت أخيه مغموراً بكثيرٍ من الحنان و قليل من التشفي :

_ الأطباء رائعون و ناجحون أليس كذلك ؟! ... لكنهم يفشلون أمام شيء واحد ، أمام الموت !

صرخ محمود من بين دموعه :

_ لم يفت الأوان !!

_ ربما اختار الله أن تدرس أنت و تتخرج لأنه كان يعلم أني سأرحل مبكراً .

ثم ابتسم و حاول أن يقول بين سعاله :

_ ادفع رسوم آخر فصل و كن طبيباً محموداً و إلا ضيعت عمري و عمرك !

وضع كفه على خد أخيه الذي تشبث بها باكياً بحرقة و أتبع :

_ أنا أحبك يا أخي ، اعذرني لأني كنت غليظاً معك .

_ بل أنا الذي كنت أنانياً و استنزفت إيثارك لأحلامي و لم أفكر في أحلامك .

هز حمزة رأسه و دمعت عيناه و قال :

_ الآن تتجلى لي تفاهة هذه الدنيا التي نتعارك لأجلها ، كان حسبي منها أن أموت بقلبٍ سليم .

انهار محمود على جسد أخيه المسجّى يحتضنه ، و من حوله كان الشبان يغالبون البكاء ، لكنهم هدؤوا عندما سمعوا أصوات الأعداء يبحثون عنهم .

***

أشعلت أخبار العملية الإعلام ، و انتشر نداءٌ على كل المنصات :

: "قوموا يا أيها الأحرار !... فهذا يومٌ مشهود ! ".

كان سليم يدور في دوامات أفكاره بعد هذه الأخبار :

"و هل ترى أي عقلانيةٍ في هذا العالم ؟!"

"ربما لن أنفع بشيءٍ إن زُججت في السجن ، لكنني سأموت مرتاحاً على الأقل "

" أخوك يطالب بتحريك الجيش ، يمكنني أن أحرك له فرقة "

ضغط على رأسه بقوة و انتفض ، تناول الهاتف .

_ ألو ، ماجد ؟

_ ظننتك لن تتصل أبداً !

***

كان عمر يشجع رفاقه :

_ هيا يا شباب ... نصرٌ أو استشهاد !!

_ ألا تلاحظ أن الوحوش النارية اختفت من الجو يا عمر ؟!

_ هل نحن نحلم يا مهند ؟!

صرخ شابٌ آخر :

_ انظروا هناك ! ... غابت الوحوش و جاءت الطائرات .

_ لا ، هذا شعار المملكة الحمراء !!

_ هل هم في صفنا أم في صف العدو ؟!

_ المصيبةُ أن يطرح هذا السؤال !

هبط جنود المملكة الحمراء و سلّموا على الأشاوس ، و انطلقوا للقتال تحت غطاءٍ جويٍ مؤقت .

***

دخل الحارس و قال لحسن :

_ هيا يا فتى ... ستذهب في نزهة !

سأله حسن متعجباً :

_ هل بدأ الشهر الجديد ؟!

ضحك الحارس بسخريةٍ و رد :

_ ماذا أقول ؟! ... الموت مستعجلٌ عليك .

حملق فيه إسماعيل غير مصدقٍ ما سمعه ، رج جسد حسن و صرخ فيه :

_ لماذا لم تخبرني بأنك محكومٌ بالإعدام ؟!

_ لكي أستمتع بصحبتك إلى آخر لحظة !

تدفقت الدموع من عيني إسماعيل و هو يراقب حسن يستعد للرحيل ، عانقه العناق الأخير ، و صافحه تلك المصافحة التي ترجو فيها أن تذوب كفك في كف الراحل قبل أن تفلتها !

_ اصمد يا دكتور ... أراك لاحقاً .

قاده الحارسان إلى السيارة ، حيث وجد صهيب يرمقه بتشفٍ و يقول بسخرية :

_ هذه الملابس حقاً تليق بك !

جلس حسن مكبل اليدين شامخ الرأس ، بينما تطوي السيارة الأرض إلى وسط المملكة ، ثم وصلهم صوتٌ من الراديو .

_ أخبارٌ عاجلة ، فرقةٌ من المملكة الحمراء وصلت المدينة المحصنة .

هاج صهيب غاضباً :

_ ماذا ؟!!!

***

_ تعال يا أسعد و اسمع الأخبار ، لا أكاد أصدق .

_ قادمٌ يا عمي .

ترك أسعد المعول و اتجه إلى حيث يستمع عمه إلى الراديو الذي صدح بالأخبار :

_ تحرك الفرقة الحمراء زاد اشتعال نار الحرب .

_ فرقةٌ من المملكة الخضراء تتبع الحمراء إلى المدينة المحصنة .

_ المملكة الذهبية تهاجم طائرات الفرقة الخضراء في طريقها .

_ مظاهراتٌ عارمة في جميع الممالك .

_ قواتٌ تعترض حاملات الطائرات في طريقها لإمداد المملكة البيضاء .

_ مئات القتلى من جيش المملكة البيضاء .

_ العدو يستدعي جميع الجنود في كافة المناطق إلى المدينة المحصنة .

_ معارك طاحنة بين المستوطنين و شباب المملكة السوداء في جميع المدن .

_ قوات المملكة البيضاء تنسحب من المدينة المحصنة .

_ المملكة البيضاء توقع صفقةً عاجلةً لتبييض السجون و تفرغ عدة مستوطناتٍ لعودة أصحاب الأرض .

توالت هذه البشريات مع مرور الأيام ، و كانت الاحتفالات و التكبيرات تعم البلدان ، جاء والد منة من السوق فرحاً و قال :

_ الناس في الشوارع كالسيل الجارف ، يطالبون بتدخل المملكة ... أخيراً تحرك المستضعفون معاً فصاروا أقوياء !!

ترك أسعد ما في يده و جرى .

_ إلى أين يا أسعد ؟!!!

صرخ بحبورٍ غامر :

_ إلى البيت !!

اختلط أسامة في الناس الماضين في أفواجٍ ، وصل بيته أخيراً و فتح الباب ، التقت عيناه بعيني والديه الذين أخذاه في حضنهما الدافئ ، قال يطمئنهم :

_ سأعود قريباً يا والديّ ، أنا بخيرٍ و الحمد لله ، لا تقلقا عليّ أبداً .

***

_ هيا اصعد إلى المنصة .

تكاثر الناس حول حسن و صرخوا :

_ ولّى عهد ظلمكم .

_ بأي ذنبٍ تقتلونه ؟!

_ لن نسمح لكم !

حال الناس بين حسن و رجال الشرطة ، و احتكوا فيهم و كثر إطلاق الرصاص و سقوط القتلى ، بينما وجد حسن يداً تسحبه بسرعة ، نظر إليه فوجده ملثماً ، صرخ فيه بعنف :

_ ابتعد عني !!

خلع اللثام و ألبسه لحسن .

_ هذا أنا يا أخي .

_ سليم !!

قرص سليم خد أخيه الصغير بحنانٍ و قال :

_ تأبى أن تسكت و تمضي الأمور على خير !

رد حسن بفخر :

_ إذن هذا من تدبيرك !! ... انظر إلى ما يفعله الصراخ ! هذه الأحداث لها ما بعدها يا أخي .

_ صحيح و لا أضمن أن تمضي الأمور بخير ، لكن كما يقول الأشاوس .

مد قبضته لأخيه الذي ضربها بقبضته :

_ نصرٌ .

_ أو استشهاد !

أسرعا ليختبئا من الرصاص ، قبل أن يرن هاتف سليم .

_ ألو ، ماجد ؟

_ اسمع ، نحن نرفض أن نأخذ أجرنا منك .

_ لماذا ؟!

رد يغالب خجله :

_ عندما رأينا تضحيات جنود الممالك الأخرى خجلنا و غرنا من بطولاتهم .

_ لكني أصر أن أؤمن مستقبل أسركم يا أبطال .

***

كانت لبنى تقف مع بلسم في المعبر ، تنتظر الحافلة المخصصة لطلبة المنحة الدراسية ، و كان القلق ينهشها من ألّا تدرك إخوتها الأسرى عند رجوعهم من السجن .

_ النداء الأخير لطلبة المنحة.

_ هيا يا لبنى !!

دمعت عيناها و ودعت الجميع ، مضت بحزنٍ و ركبت الحافلة ، قبل أن تشق الطريق حافلة الأسرى المحررين ، حيث وقف الأشاوس ملثمين في استعراضٍ عسكريٍ لاستقبالهم بين الأهالي المشتاقين ، لمحت بلسم عيوناً مألوفة بين المقاتلين ، كانت الشكوك تراودها ، هل هو ؟... اقترب منها بخطيٍ عسكرية و مد يده ليسلم عليها ، تأملت عينيه غير مصدقةٍ حتى تكلم أخيراً :

_ هذا أنا يا بلسم !!

ارتمت في حضنه و صرخت :

_ أحمد !!

سمعت أمه صوته فجاءت راكضةً مع رهف ، هطلت دموع الفرح و أخذهم بالأحضان ، سألته بلسم :

_ هل كنت أنت الذي سلّم عليّ في صغري ؟

_ لا ، كان ذلك عمر ، و أنا كنت بجانبه لكنكِ لم تميزيني .

تعجبت بلسم :

_ كان عمر ؟!!

ثم أتبعت بلهفة :

_ لكني ميزتكَ هذه المرة على الفور ، فأنا منذ بداية الحرب أبحث عن عينيك بين كل العيون !

أشارت رهف إلى مقاتلٍ يتقدم نحوهم و هتفت بابتهاج :

_ ها هو عمر قادم !!

اقترب عمر و قال :

_ سألني إن كنتُ قد اعتنيت بأهله فقلت أنهم هم الذين اعتنوا بي .

سألت الأم أحمد :

_ لكن أين كنت ؟! ... و ما خطب يدك ؟!

_ كنتُ بين أهالينا في المدينة الخضراء .

ثم دمعت عيناه و هو يقول :

_ ظننت أن الحرب أخذت مني يدي فقط ، لكن اتضح أنها أخذت والدي كذلك .

دمعت عيونهم جميعهم ، و احتضن أحمد والدته التي أجهشت بالبكاء و قبّل رأسها ، كفكفت دموعها و قالت :

_ الحمد لله ، ظننت أني فقدتكَ أنتَ كذلك ، اخلع هذا اللثام لأملأ عيني منك .

وضعت كفها على وجهه تتحسسه و تتأمله بلهفة و تردد :

_ الحمد لله ... الحمد لله .

سألته بلسم:

_ ماذا كنتَ تفعل هناك ؟

رد عمر ضاحكاً :

_ كان يلعب مع الوحوش !

_ إنه يغار مني لأني شاركت في عملية الإبصار الرحيم .

ردت رهف مندهشة :

_ حقاً !!

_ بلى و كنتُ أحمل اسم ليث هناك .

تعلقت رهف بيده و بدأت تغني بدلال :

_ أخي البطل ، أخي البطل ..

لاعبها أحمد ثم نظر إلى بلسم و قال :

_ و الآن يا بلسم ! ... لقد حدثني عمر بشأنك .

ارتبكت بلسم عندما تجمعت العيون عليها ، ردت رهف بمكر :

_ يريد أن يخطبها أليس كذلك ؟!

رد عمر بوجهٍ أخفى اللثام حمرته :

_ أكنتُ مكشوفاً إلى هذا الحد ؟!

ضحك الجميع ، ثم سأل أحمد :

_ ما رأيكِ يا أختي ؟

ابتسمت بلسم بإشفاقٍ و ردت :

_ ألا نتوب عن الجراحات ؟!

اتسعت عينا عمر ، كأنها كانت في عقله تفكر معه في نفس السؤال ، استجمع قوته و أجاب بثقة :

_ و هل الدنيا إلا جراحاتٌ متتابعة ؟!

نظروا إليه منصتين عندما أكمل :

_ لكن المؤمن الذي يعتصم بحبلٍ من السماء لا يخاف من مخالبها التي تهدد بها على الأرض ، و يسعى بقوةٍ غير عابئٍ بنزيفه المتجدد ، فهو يؤمن بجنةٍ تشفى فيها كل الجراح و تجبر فيها كل الكسور ... مثل هذا لا يهاب أبداً ! لأنه لن يخسر شيئاً ! فقد باع كل شيءٍ و اشترى الإله ... مثل هذا لا يتحصن إلا بالمواجهة !

ضحك أحمد و ضرب ظهره بقوة :

_ يبدو أنك نضجت كثيراً في غيابي .

تذمر عمر :

_ أوجعتني يا أخي !

سألت رهف أختها بحماس :

_ و الآن يا بلسم ، اشتقت إلى الفرحة يا أختي ، هل أطلب من أمي أن تزغرد ؟

قرصت بلسم خد أختها ، و هزت رأسها بحياء ، فزغردت أمها و قبّلت ابنتها التي تعرف جيداً أن الطريق التي هي مقدمةٌ عليها ليست سهلةً أبداً ، كان في عينيها بريق بهجة ، لكن الحزن كان متوغلاً عميقاً في غياهب عينيها و عيونهم جميعهم ، حزنٌ لا تجلوه كل مباهج الحياة .

علّق أحمد عليهما :

_ مبارك ، و الآن أعانك الله يا عمر ، فنحن سنستوطن بيتك لمدة !

_ لا بأس ، فقد استوطنتم قلبي مقدماً .

كانت لبنى على مقعدها في الحافلة ، تغطي وجهها بكفيها تواري دموعها ، لكن الطالبة التي بجانبها نقرت على كتفها و قالت مشيرةً إلى النافذة :

_ أظن أنهم ينادون عليكِ !

نظرت لبنى فرأت إخوتها يتسابقون ليصلوا إلى نافذتها .

_ لبنى !!

أخرجت رأسها من النافذة و مدت يدها لتسلم عليهم بلهفةٍ و اشتياق ، لكن والدها الكهل لم يتمكن من اللحاق بالحافلة ، وقف الناس يطالبون السائق بالتوقف ، ولّى عهد التفرج و السكوت ! وقفت الحافلة و نزلت لبنى بسرعةٍ و غاصت في حضن والدها الدافئ ، تأملت آثار التعذيب الظاهرة عليه و على إخوتها الشباب بإشفاق ، أجهشت بالبكاء و قالت معتذرة :

_ عرضوا عليّ أن أخرجكم مقابل أن أعمل معهم ، و كنت على وشك الموافقة !

عبس إخوتها بينما رد والدها بحنان :

_ لقد نجحتِ في الاختبار يا ابنتي فلا تحزني .

اقترب أحد إخوتها و ربت على ظهرها و قال :

_ سيكون كل شيءٍ بخيرٍ الآن .

رد آخر :

_ لا تحزني يا أختي ، لقد مر كل شيء ..

قرّت عيناها و ارتاح قلبها أخيراً !

أشرقت شمس الأمان أخيراً على المدينة المحصنة ، أرسلت أشعتها الدافئة علّها تمسح الكوابيس المفزعة عن المدينة ، المدينة التي تشقق حلقها من الصراخ ، و لم تجف عنها الدموع ، و مازالت الحروق و الجروح متفشيةً في جسدها ، ضحّت كثيراً و تعبت كثيراً ، لكنها بقيت و ستبقى محصنة ... فإنه لجهاد ، نصرٌ أو استشهاد !

تمت بحمد الله .

المدينة المحصّنة

كأن عقلها أدمن الهموم ، ما إن يعتقها من التفكير في همٍّ حتى يرميها وسط نار همٍّ آخر ، مسؤولياتٌ وأحمالٌ تنوء بظهرها ، وذكرياتٌ ملحّةٌ تئن من آلامها ، و أطلال أحلامٍ تحاول لملمة حطامها ...
ليست وحيدةً فالكل يهرب من سطوة الحرب إلى داخله ، ينقّب عن شخصه القديم الذي كاد ينساه ، و يهدهد ما تبقّى له من آمال ، يتجلّد ما أمكن أمام الناس ، ويبث الكثير من الشكاوى المُخضّلة بالدموع على عتبات السماء .